من ملفات
المخابرات المصرية

أعنف صراع بين العاطفة والواجب

سامية فهمي

سلمت خطيبها - الخائن - للمخابرات المصرية
وكشفت أخطر شبكة تجسس إسرائيلية في أوروبا

صالح مرسي

مكتبة مدبولي الصغير
القاهرة

الفصل الثاني عشر

السجن أو القتل !

تلك ليلة في حياة نبيل سالم لم ينسها أبداً . . . ليلة ظلت سيفاً مسلطاً فوق عنقه فإذا هو أداة طيعة في يد من أسلمهم نفسه بأبخس الأثمان . . . فما أن فاه ضابط الشرطة الألماني بما فاه به حتى مادت الأرض تحت قدميه ، أحس أنه يهوي من فوق السحاب إلى قاع بلا قرار . . . راح الرجل يقلب في أكياس المخدرات التي ملأت الحقيبة كما ملأت رائحتها هواء الغرفة وسيل من الأسئلة يندفع من بين شفتيه في تلاحق كاد يورثه الجنون . . . حاصرته الأسئلة من كل جانب لكنه تشبث ببقية من إرادة وهو ينفي معرفته بمحتويات الحقيبة نفياً قاطعاً ، قال : إنها ليست حقيبته وأكد أن في الأمر خطأ أو مؤامرة . . . أخذ الرجل يسأله عمن يعمل معه ومن سلمه الحقيبة وإلى من كان ينوي تسليمها ومنذ متى يعمل في تهريب المخدرات وكم يتقاضى من أجر . . . . لكن نبيل لم يتزحزح عن موقفه ذاكراً إنه وضع حقيبته ـ كالعادة ـ فوق رف الأوتوبيس وإنه يذكر أنه شاهد بجوارها حقيبة أخرى مشابهة لها تماماً ، وإنه عندما انتهت الجولة أخذ الحقيبة وعاد إلى مكتبه دون أن يفتحها ولا بد أن هناك خطأ قد حدث ولا بد أن صاحب الحقيبة سوف يبحث عنها . . . كانت لحظات رهيبة تلك التي عاشها نبيل سالم وهو يجيب على الشرطي محاولاً التماسك بكل ما استطاع من قوة . تذكر قول أبي سليم عندما التقى به في شقة فريدريك لأول مرة وقال له إن الشرطة في ألمانيا غيرهم في مصر ، وإن القوم هنا متحضرون من الممكن التفاهم معهم . . . فهل ينقذه أبو سليم ويتفاهم مع هؤلاء الرجال فعلاً ، أم يتركه لمصير أسود لا يعرف عنه شيئاً . . . التفت الشرطي نحو شيرلي

هايمان التي كانت تقبع في ركن المكان تبدو شاحبة الوجه ضائعة النظرات تتعلق عيناها بوجه نبيل في تساؤل صارخ . . . سألها الرجل فجأة :

« وأنت أيتها الصغيرة . . . منذ متى وأنت تشتركين في هذه اللعبة الجهنمية ؟! » .

قبل أن تفتح فمها صاح نبيل مدافعاً :

« إن شيرلي لا دخل لها في الأمر ! » .

سخر منه الرجل ملتفتاً إليه :

« كذا ؟! » .

« لقد دعوتها إلى العشاء هنا فجاءت وكانت الحقيبة معي ! » .

« إذن فالحقيبة لك ؟! » .

« لقد أخبرتك بما حدث وأنا على استعداد لأن أذكره ألف مرة ! » .

« يبدو أنك مصر على الإنكار ؟! » .

« أنا لا أنكر شيئاً ولكني أذكر الحقيقة ! » .

« وما هي الحقيقة ؟! » .

« لا بد أن خطأ قد حدث وتبادلنا أنا وصاحب الحقيبة الأخرى الحقائب ! » .

« أليست هذه الحقائب من مخصصات الشركة ؟! » .

« نعم . . . وهذا ما جعل الأمر يبدو لي طبيعياً ! » .

« إذن فالحقيبة لا بد مملوكة لواحد من زملائك ! » .

« لست أدري . . . ربما . . . لا أعلم ! » .

« لمن هي إذن ؟! » .

كان ضغط الرجل عليه يتزايد سؤالاً بعد آخر فصرخ نبيل :

« لو أني كنت أعلم لأخبرتك ! » .

« ومنذ متى تتعاون فراولين هايمان معك ؟! » .

« ليس لفراولين هايمان أي دخل في الأمر . . . وهي لا تتعاون معي إلا في عملنا في الشركة . . . وأنا الذي دعوتها إلى العشاء هنا ! » .

صمت الشرطي الألماني قليلاً ، التفت نحو شيرلي وقد استغرق في التفكير . . . كانت هي لا تزال في مكانها ترتجف رعباً . . . سألها :

« أليس لك دخل في الأمر حقاً ؟! » .

قالت . . . وكانت تبدو مسكينة ضعيفة !

« لقد ذكر لك الحقيقة وليس لي علم بشيء ! » .

« منذ متى وأنتما صديقان ؟! » .

« نحن لسنا صديقين فقط ، نحن مخطوبين ! » .

دق قلب نبيل فرحاً وطرباً . . . هتف في عرفان :

« شيرلي ! » .

قالت في صوت مرتجف :

« إني أعلم أنك بريء ! » .

ساخراً غمغم الشرطي :

« يبدو مس فراولين هايمان أنك واثقة من خطيبك ؟! » .

في ألمانية طلقة اندفعت في القول :

« كل الثقة سيدي الضابط . . . لقد عرفته منذ أن التحق بالعمل معنا في الشركة . . . ثم إني كنت معه منذ غادر الأوتوبيس حتى الآن ! » .

« ألم تلحظي شيئاً غير طبيعي ؟! » .

« بالمرة ! » .

« وأين كنت طوال اليوم ؟! » .

« في مقر عملي بالشركة وهناك عشرات الشهود على ذلك ! » .

التفت نحو نبيل :

« وأنت . . . كيف قضيت يومك ؟! » .

« مع فوج سياحي منذ التاسعة صباحاً وحتى عدنا إلى الشركة وجميعهم يشهد بذلك ! » .

أومأ نحو شيرلي متسائلاً :

« إذن فلا دخل لها في الأمر ؟! » .

« ولا دخل لي أنا أيضاً !! » .

تبادل الشرطي النظر مع واحد من زميليه ثم قال لشيرلي :

« تستطيعين الإنصراف إلى بيتك إلى أن نستدعيك لأخذ أقوالك ! » .

همت بالحركة عندما استطرد الرجل :

« لست في حاجة لأن أذكرك بأنك ممنوعة من مغادرة هامبورج حتى تدلين بأقوالك ! » .

هزت شيرلي رأسها إيجاباً وتحركت نحو الباب عندما سمع الجميع دقاً عليه !

انتفض الرجال الثلاثة متفرقين في الغرفة ، واندفع أحدهم كي يدس فوهة مسدسه بين ضلوع نبيل وهو يهمس :

« حذار أن تأتي بحركة واحدة ! » .

ارتدت شيرلي إلى الخلف في خوف ورعب . . . وحاصر الشرطي الباب مع زميله الآخر . . . أخرج كل منهما سلاحه ملتصقاً بالحائط . . . عاد الدق من جديد فأومأ الشرطي إلى نبيل كي يتقدم من الباب وهمس الرجل الواقف خلفه :

« أي تصرف خاطىء سوف يرسل بك إلى العالم الآخر ! » .

عاد الدق مرة ثالثة ، وفي إلحاح ، فتقدم نبيل من الباب . . . ما إن فتحه حتى اقتحم أبو سليم الغرفة صائحاً :

« إيه نبيل . . . إنت كنت فا . . . . . » .

بدا الأمر لنبيل وكأنه يشاهد فيلماً بوليسياً ، أو كـأنه في حلم مـزعج . . . تنفس الصعداء على كل حال فها هو القدر يـرسل إليـه طوق نجـاة وعليه الآن أن يتعلق به . . . ما إن خطا أبو سليم خطوة حتى توقف عن الحديث وقد أحاط به الرجال وأغلق الباب فرفع يديه إلى أعلا متسائلاً :

« ما هذا الاستقبال بحق الجحيم ؟! » .

تلفت حوله حتى وقعت عيناه على الشرطي الكبير فهتف :

« هربراون . . . ماذا تفعل في مسكن صديقي ؟! » .

أعاد الرجال أسلحتهم إلى مكانها وتقدم هربراون من أبي سليم دهشاً :

« بـو سليم . . . هل أنت صديق للهر سالم ؟! » .

ضحك أبو سليم ضحكته العريضة المجلجلة تلك وهو يهتف :

« وإلا لما كنت هنا الآن ! » .

قال هذا ثم التفت نحو نبيل متسائلاً :

« ما الذي يحدث هنا بحق السماء يا نبيل ؟! » .

اندفع نبيل يقص على أبي سليم ـ بالألمانية ـ قصـة الحقيبة التي اختلطت بحقيبته ، وشيرلي التي دعاها إلى العشاء ، واقتحام رجال الشرطة للبيت . . . و . . . وكان واضحاً أن لأبا سليم مكانه عند الشرطي المتجهم الذي انفـرجت أساريره بمجرد رؤيته له . . . وما أن انتهى نبيل من حديثه حتى التفت أبو سليم نحو الشرطي قائلاً وهو يومىء نحو شيرلي :

« لننظر أولاً في أمر هذه المسكينة ؟! » .

قال هر براون :

« لقد طلبت منها الإنصراف قبل وصولك بثوانٍ ! » .

هتفت شيرلي :

« وهل أستطيع الإنصراف الآن ؟! » .

« بالتأكيد . . . على ألا تغادري هامبورج قبل أن نسمح لك بذلك ! » .

همت بالحركة فلاحقها الرجل :

« ولا تنسي أن تتركي عنوان سكنك وعملك قبل إنصرافك ! » .

أخرج أحد الرجلين قلماً وورقاً فالتفت أبو سليم نحو هر براون متسائلاً فقال هذا :

« إنه مجرد روتين أبو سليم . . . مجرد روتين ! » .

هـرولت شيرلي هـايمان نحـو الباب لكنهـا قبل أن تنفـذ منه التفتت نحـو نبيل . . . ألقت إليه بنظرة حانية ، فشملها بعينيه هاتفاً :

« سوف نلتقي قريباً . . . أقسم لك سوف نلتقي ! » .

ولم يكن نبيل سالم يعرف ـ وهو يقسم ـ أن هذه هي المرة الأخيرة التي تقع فيها عيناه على تلك الفتاة الإسرائيلية لويـز جولـدمان ، التي عـرفها تحت اسم « شيرلي هايمان » . . . وأن دورها معه قد انتهى تماماً !

* * *

. . . . . وفي هذه المرة أيضـاً ، كان أبـو سليم على حق ، وكان عند وعده الذي بذله ذات ليلة في شقة فريدريك موزع المخدرات . . . فما أن خرجت شيرلي هايمان حتى واجه أبو سليم ذلك الهر براون مواجهة صريحة لا لف فيها ولا دوران ، وإذا كانت تحريات الشرطة الألمانية قـد أنبأت بـأن نبيل يعمل في ترويج المخدرات أو الإتجار فيها ، فهل هناك دليل على هذا سـوى الحقيبة ؟! . . . وكما قال نبيل فلقد كان عدد السائحين في السيارة أربعة عشر سائحاً وسائحة جميعهم من دول اسكندنافيا ، فلم لا يكون أحدهم صاحب تلك الحقيبة . . . وإذا كانت الحقيبة تخص الشركة ، فإن تقليد مثل هـذه الحقائب ـ ناهيك عن سرقة واحدة أو الحصول عليها ـ أمر بالغ البساطة . . . فكيف تترك الشرطة اللصوص لتجرم بريئاً ؟! .

كان الموقف شديد الغرابة ، وكان نبيل يتتبع ما يحدث بإعجاب بالغ وقلبه يخفق لأبى سليم بعرفان بلا حدود . . . مرة أخرى كان يتنفس على صدره بعد

أن ضاعت أنفاسه لدقائق خالها دهوراً بلا نهاية . . . أخذ الحوار بين الرجلين - أبو سليم وهر براون - يحتدم لحظة بعد أخرى ، وكان أبو سليم قوي الحجة والمنطق والتصرف معاً . . . ففي لحظة من اللحظات النادرة ، أخرج أبو سليم حافظة نقوده المتخمة بالمال وهو يقول زاخراً :

« على كل . . . لا بد من وضع حد لهذا الأمر . . . فما قولك أيها العزيز براون ؟! » .

تمتم هذا وعيناه معلقتان بالحافظة :

« وهل تضمن هذا السيد ؟! » .

« قلت لك إنه صديقي ! » .

« لكنك تعلم أن ثمة إجراءات ! » .

« ماذا تعني بحق الشيطان ؟! » .

« أعني إنه لا بد من إنهاء الأمر رسمياً ! » .

« حسن . . . وكيف ننهي الأمر رسمياً ؟! » .

« لا بد من حضور هر سالم في الغد إلى إدارة الشرطة لإستكمال التحقيق ! » .

« ليس هذا أمراً عسيراً ! » .

« على ألا يغادر هامبورج قبل الإنتهاء من هذه القضية وإغلاقها تماماً ! » .

« إني أضمن لك هذا ! » .

لوح الشرطي في وجه أبي سليم محذراً :

« أبو سليم ! » .

« قلت لك إني أضمن هذا ! » .

زحفت عينا الرجل إلى الحافظة فأخرج منها أبو سليم كمية لا بأس بها من أوراق النقد الألماني دون عد ، وقدمها للشرطي قائلاً :

« عليك أن تتصرف مع زميليك ! » .

تناول الرجل النقود مغمغماً :

« لعلك تعرف صراحة القانون الألماني يا صديقي ! » .

في حدة من نفذ صبره هتف أبو سليم :

« هر براون . . . يبدو أنك لا تصدق أن هذا الشاب المصري صديقي بالفعل ! » .

« ليس الأمر كما تظن !! » .

« إذن تخبرني بما لا أظن ! » .

استدار الرجل نحو نبيل وهو يقول بكلمات بسيطة واضحة وهو يضغط على مخارج ألفاظه :

« لو أن هذا الشاب غادر هامبورج دون إذن ، وقبل أن ينتهي التحقيق تماماً ، فلسوف توجه إليك تهمة الاشتراك في تهريب المخدرات معه ! » .

« إن هذا لم يغب عن ذهني لحظة ! » .

ولم يعد هناك ما يمكن أن يقال . . . أومأ الشرطي إلى زميليه فتحركا نحو الباب ، مد يده مصافحاً أبا سليم قائلاً لنبيل :

« موعدنا غداً في التاسعة صباحاً أيها الشاب ! » .

« أين ؟! » .

ضحك ساخراً وهو يخطو نحو الباب :

« في إدارة الشرطة طبعاً ! » .

هتف أبو سليم :

« لكني سوف آتي معه ! » .

« ولا تنسى المحامي يا صديقي ، فإن الأمر سيحتاج إليه بكل تأكيد ! » .

. . . . . .

. . . . . .

ما أن أغلق الباب خلف الرجال الثلاثة ، حتى استدار أبو سليم نحو نبيل فكأن الذي يواجه الشاب إنسان آخر . . . كان وجه الرجل متقلص الملامح حاد

القسمات ، تتوسطه عينان تطلقان غضباً كالرصاص . . . تراجع نبيل خطوة إلى الوراء وقد انتابه رعب هائل ، سأله أبو سليم بالألمانية :

« والآن . . . ما الذي حدث بالضبط ؟! » .

قال نبيل سالم فيما بعد وهو يحكي قصة تلك الليلة المشهودة ، إنه في حياته ـ أبداً ـ لم يشعر بمثل الرعب الذي شعر به وهو يواجه نظرات أبي سليم . . . قال : إنه لسبب غير واضح ، وجد نفسه يتذكر قول فريدريك بيكر موزع المخدرات إن الرجل الكبير من الممكن أن يرسل به إلى العالم الآخر لأصغر هفوة . . . وكان موقناً أنه الآن لم يرتكب هفوة صغيرة ، بل ارتكب بالفعل جرماً لا يغتفر ، جرم أوصله إلى حافة الخطر أو الموت بعد أن صودرت شحنة المخدرات وخسر أبو سليم ما لا يعلم من عشرات الألوف من الماركات الألمانية . . . قال نبيل معبراً عما اعتراه ، إنه أحس وكأنه يواجه الموت مواجهة صريحة فلم يكن أبو سليم غاضباً فقط ، بل كان مجنوناً ، وكان في صوته الحاد صليلٌ بعث الرعب إلى قلبه وضاع صوت نبيل وتبددت الكلمات وهو يقص على الرجل ذلك الذي حدث منذ أن دخل الشقة مع شيرلي وحتى وصول رجال الشرطة . . .

تركه أبو سليم يكمل حديثه ويسترسل فيه كيفما شاء له الإسترسال ، حتى إذا ما انتهى قال هذا بصراحة :

« ليس هذا ما سألتك عنه هر نبيل !! » .

هكذا هو إذا ما غضب واحتدم استحالت ملامحه إلى نتوءات صخرية في وجه جرانيتي التصميم وكأن سداً سميكاً قد هبط بينه وبين الرجل الذي أسْلَمه قياده وربط مصيره وجعل حياته معلقة بكلمة منه ، أو بحكم يصدره عليه بالحياة أو الموت أو السجن ، هَمّ بالمراوغة فأوقفته كلمات أبو سليم الهادرة :

« ليس هذا ما سألتك عنه هر نبيل !! » .

وها هو يكرر ـ للمرة الثانية ـ اسمه مصحوباً بكلمة « هر » أي السيد ، فماذا وراءه ؟!

« أبو سليم . . . أنا عارف إني غلطت ، لكن . . . . . » .

في صلف قاطعه الرجل هادراً :

« إني أتحدث إليك بلغة فلا تحدثني بلغة أخرى ! » .

اختلطت الكلمات في ذهنه بمعانيها ولم يعد يعرف ماذا يقول . . . لاك لسانه بضع كلمات بلا معنى فحدد له هذا الطريق :

« لماذا لم تضع الحقيبة في الخزانة أيها السيد ؟! » .

« لأن شيرلي . . . . . » .

« دع شيرلي هايمان هذه جانباً فحسابي معك بخصوصها لم يأت أوانه بعد ! » .

« أبو سليم . . . لقد أخطأت ، غير أني كنت في موقف حرج فلم أجد مخرجاً إلا المجيء إلى البيت حتى لا تكتشف الفتاة الأمر ! » .

صمت الرجل لثوانٍ وكأنه يتدبر الأمر ثم قال :

« على كل ليس هذا وقت الحساب ! » .

« أبو سليم . . . أرجو أن . . . . . » .

نظر الرجل في ساعة يده مغمغماً بالعربية :

« حضر شنطتك بسرعة ! » .

« شنطتي ؟! » .

« طبعاً يا أستاذ . . . انت عارف المخدرات التي أنت ضيعتها دي ثمنها كام ؟! » .

كمن يغرقه في ماء يغلي ثم يخرجه إلى ماء متجمد ، أطل الرعب عليه من بين شفتي الرجل الذي أردف :

« وعارف المنظمة ممكن تعمل فينا إيه ؟! » .

« منظمة ؟! » .

« طبعاً . . . إنت متخيل إني باشتغل لوحدي ؟! » .

ضاع نبيل وفوهة عذاب مرعب تَفْتَحُ تحت قدميه .

« المنظمة مش حاتحاسبك إنت لوحدك ، إنما حاتحاسب اللي شغلك واتحمل مسؤوليتك ! » .

« يعني إيه ؟! » .

« يعني حاتحاسبني أنا كمان يا نبيل ! » .

« وإنت ذنبك إيه ؟! » .

في سخرية مريرة هتف أبو سليم :

« ذنبي إني قدمتك ليهم وشغلتك واستأمنتك على بضاعة بالشيء الفلاني ! » .

أذاب الحديث بالعربية كثيراً من الثلوج الرابضة فوق صدر نبيل فهتف :

« أنا مستعد أتحمل المسؤولية كلها ! » .

« قدام مين ؟! » .

« المنظمة ! » .

« والبوليس ؟! » .

أسقط في يد نبيل أحس أنه محاصر إلى الاختناق . . . أضاء في ذهنه فجأة ما كان أبو سليم يسعى إليه ، وما عناه عندما طلب منه تجهيز الحقيبة . . . ساد الصمت لثوانٍ قال بعدها الرجل :

« انت عارف إيه اللي حايحصل بكرة لو دخلت إدارة البوليس برجلك ؟! » .

توسل نبيل واستعطف :

« يا بو سليم أرجوك المسألة . . . . . » .

« مش حاتخرج منها قبل خمسة وعشرين سنة ! » .

« أنا تحت أمرك ! » .

هكذا استسلم دون شرط . قال الرجل :

« لازم نسيب البلد ! » .

« والهر براون ؟! » .

« إحنا مش حانسيب هامبورج . . . إحنا حانسيب ألمانيا كلها ! » .

فَغَرَ نبيل فاه دهشة ، فلاحقته كلمات الرجل بالألمانية :

« عليك أن تجهز حقيبتك ، ثم تطفيء جميع الأنوار وكأنك ذهبت إلى فراشك . . . وعندما ينتصف الليل تماماً أنظر من النافذة دون أن تضيء النور . . . فإذا أتاك ضوءسيارة يضيء وينطفيء مرتين متتاليتين ، فغادر البيت على مهل . . . ارتدِ معطفاً وقبعة تداري بها ملامح وجهك . . . سر حتى ناصية الشارع دون أن تلتفت هنا أو هناك حتى لا تثير الريبة . . . عند الناصية ، وإذا انحرفت إلى اليسار فلسوف تجد على بعد خمس خطوات لا أكثر ، سيارة زرقاء اللون . . . إسأل السائق عن الساعة ، فإذا ما طلب منك أن تركب فاركب دون كلمة ! » .

« وإذا لم يطلب مني الركوب ؟! » .

« عد إلى البيت مرة أخرى . . . وعلينا أن ننتظر مصيرنا معاً !! » .

قال أبو سليم هذا وهو يستدير منصرفاً دون كلمة . . . وجد نبيل نفسه يقف في مسكنه وحيداً ، مهدداً بالسجن أو القتل ، ولم يكن أمامه من سبيل إلا أن يطيع أبو سليم ، وأن يتبع خطاه !

* * *

كان الوقت قد تخطى منتصف الليل بدقائق قليلة عندما مال نبيل على سائق سيارة كانت تنتظره في شارع جانبي خافت الضوء ، سأل الرجل عن الساعة فزمجر هذا :

« اصعد ! » .

قبل أن يفتح الباب الخلفي للسيارة زأر الموتور ، وما أن دلف إلى الداخل حتى انطلقت السيارة لا تلوي على شيء . . . ما أن استقر في المقعد حتى ارتطم كتفه بمن كان يجلس على يمينه ، إلتفت فإذا أبو سليم يجلس في انتظاره !

ولساعات طالت ، كان الصمت هو اللغة السائدة داخل السيارة التي غادرت هامبورج وكأنها تفر من أشباح تطارد مَنْ فيها . . . كان أبو سليم ـ بين الحين والحين ـ يلتفت إلى الخلف ويتبادل مع السائق كلمات حول ما إذا كانوا متبوعين بسيارة أخرى . . . عندما انطلقت السيارة في الطريق السريع ، واطمأن الرجلان إلى أن أحداً لا يتبعهم ، غطس أبو سليم في مقعده ، هبط بقبعته فوق عينيه ، وسرعان ما علا شخيره !!

. . . . . .

. . . . . .

مع خيوط الفجر الأولى وصلت السيارة إلى مدينة فرانكفورت ، حاول نبيل طوال الطريق أن يغفو قليلاً دون جدوى ، كانت الأفكار تصطرع في رأسه بعنف وهو لا يدري إلى أين هو ذاهب ولا ما الذي حدث وكيف انزلق إلى مثل هذا الطريق الذي يبدو له بلا نهاية . . . لاح للبصر مطار فرانكفورت على البعد ، عندما التفت نحوه أبو سليم متسائلاً :

« أين جواز سفرك ؟! » .

قدم له نبيل جواز السفر فدسه الرجل في جيبه مقدماً له جوازاً آخر . . . في دهشة معقود اللسان تناول نبيل الجواز الجديد ، قلب صفحاته على ضوء النهار الخافت ، فإذا به أمام مفاجأة مروعة !

كان جواز السفر الذي بين يديه مصرياً ، وكان يحمل صورته ، كما كان يبدو مستعملاً يحمل عدداً لا بأس به من أختام مطارات دول مختلفة . . . شيء واحد توقف أمامه نبيل خافق القلب ، ذلك هو الاسم المدّون في الجواز . . . كان الاسم هو : جيزاوي . . . نبيل .

« إيه الاسم ده يا بو سليم ! » .

في لا مبالاة سأله أبو سليم وهو يتطلع فيما حوله من معالم المدينة :

« إنت اسمك إيه بالكامل ؟! » .

« نبيل سالم مصطفى ! » .

زمجر الرجل في ضيق :

أنا باقول اسمك بالكامل يا نبيل ؟! » .

« نبيل سالم مصطفى عبد الله ! » .

في نفاذ صبر التفت الرجل نحو نبيل وهو ينظر إليه نظرته تلك المخيفة ، فابتلع هذا لعابه وسرى الخوف في أوصاله قاهراً وهو يغمغم :

« نبيل سالم مصطفى عبد الله جيزاوي ! » .

« يبقى إحنا ما غلطناش ! » .

« مش فاهم !! » .

رغم أن اسم « جيزاوي » كان هو اسم العائلة حقاً . . . إلاّ أن نبيل تعود منذ نعومة أظفاره ، أن يكون اسمه نبيل سالم مصطفى . . . هذا كان اسمه في المدرسة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعة ، ثم هو اسمه في البطاقة الشخصية وجواز السفر جميعاً . . . ولقد عرف في إحدى سنين عمره أن أباه أسقط اسم العائلة من اسمه واسم ابنه لخلاف لم يفهم طبيعته ولم يهتم بتقصي الأمر من حوله ، وإن كان ـ بشكل غامض ـ قد عرف أن السبب كان خلافاً بين أبيه وبين عائلته حول زواجه من أمه !

فمن أين عرف أبو سليم اسم العائلة وهو لم يذكره له ؟!

لم يكن الأمر سراً يخفيه على أحد ، لكنه لم يذكر الحقيقة ، بل ربما لم تخطر بباله . . .

وعلى كلٍ ، فما أن قال إنه « مش فاهم » ، حتى اعتدل أبو سليم بكليته نحوه كانت السيارة قد وصلت الآن إلى موقف السيارات في المطار ، وكانت نوافذها مغلقة والجو دافىء والسائق تحول منذ ساعات في وعي نبيل ولا وعيه معاً ، إلى مجرد آلة تجلس خلف عجلة القيادة ، وثمة خدر يتسلل إلى أعصاب نبيل وأعضائه مع رغبة عارمة في النعاس تجتاحه اجتياحاً ، سأله الرجل :

« عاوز تفهم إيه ؟! » .

« عاوز أفهم اللي بيحصل يا بو سليم ! » .

أومأ أبو سليم نحو جواز السفر متسائلاً :

« الباسبور اللي في إيدك ده فيه حاجة ؟! » .

« لأ ! » .

« مصري ؟! » .

« طبعاً ! » .

« إذا كان على الاسم ، لازم تعرف إننا غيرناه علشان الأنتربول ! » .

رفع نبيل حاجبيه دهشة عندما استطرد الرجل :

« تفتكر هر براون حايعمل إيه لما يستناك بعد كذا ساعة ولا تروحش ؟! » .

« أكيد حايدور عليَّ ! » .

« ولما يكتشف إنك هربت من ألمانيا ؟! » .

في ضياع نبيل :

« حايبلغ الأنتربول ! » .

« بس حايبلغه باسم نبيل سالم ، مش نبيل جيزاوي ! » .

عاد الصمت كي يلف السيارة كأعصار . . . لم يكن هناك الآن ما يمكن قوله ، عاد أبو سليم إلى الحديث في تراخٍ :

« إحنا حانركب الطيارة اللي رايحة برن في سويسرا . . . والتذكرة بتاعتك آهيه ! » .

ناوله التذكرة فتناولها في صمت .

« أول ما نسيب العربية محدش فينا حايكلم التاني ، ولا حانقعد جنب بعض ، ولا كأننا شفنا بعض أو نعرف بعض قبل كده ! » .

هز نبيل رأسه إيجاباً .

« ولما ننزل مطار برن . . . أنا حابقى أتصرف ! » .

« وهو كذلك ! » .

همَّ نبيل بمغادرة السيارة فأمسك صوت أبو سليم بخناقه :

« اتصرف بشكل طبيعي جداً . . . فاضل على الطيارة ٤٥ دقيقة ، وفاضل على ميعادنا مع هر براون تلات ساعات وشوية ! » .

زحفت عينا نبيل نحو جواز السفر وفي رأسه ألف خاطر وخاطر فابتسم أبو سليم مردفاً :

« وبالنسبة للباسبور ماتخافش ، محدش ممكن يكشفه ! » .

. . . و . . . و . . . ومرة أخرى يصدق أبو سليم ، فلقد مرَّ نبيل سالم من الجوازات بسهولة شديدة ، وعندما صعدت به الطائرة إلى الجو تنفس الصعداء ، فها هو شبح السجن يبتعد عنه وكان موقناً أن أبا سليم يجلس معه في نفس الطائرة فوق مقعد ما لم يحاول أن يعرف مكانه . . . قليل من الراحة تسلل إلى نفسه ، لكن كثيراً من الغموض والقلق راحا يجتاحانه بعنف . . .

غير أن نبيل سالم ، رغم كل شيء ، لم يكن يدري ، ولم يخطر بباله ، أن ما سوف يلقاه في الساعات القليلة القادمة ، أكثر هولاً مما مضى عليه .

* * *

الفصل الثالث عشر

الهروب المزيف !!

يبدو لي أنه لا بد لنا هنا وقفة نلقي فيها الضوء على بعض الجوانب الخفية من تلك القصة . . . وإذا كانت سامية فهمي عندما لجأت إلى جهاز المخابرات المصري حاملة في صدرها تلك الشكوك المدمرة حول حبيبها ، دون أن تعلم أن تلك الشكوك كانت واقعاً يعيشه الرجال هناك . . . وأن عادل مكي بالذات كان يعرف الكثير . . . فإن السؤال المطروح يصبح :

كيف عرف الرجال بقصة نبيل سالم ؟!

كيف اكتشفوها وتابعوها ؟!

سؤالان يستلزمان منا العودة قليلاً إلى الوراء . . . إلى الساحة التي شهدت تلك الأحداث . . . عودة لا استطراد فيها ولا تزيد ، وإنما ـ فقط ـ كي توضع النقاط فوق حروفها الصحيحة ، حتى تكتمل الصورة !

. . . . . .

. . . . . .

قال لي ضابط المخابرات المصري عادل مكي وهو يجمع أطراف تلك القصة المحزنة لذلك الشاب التعس نبيل سالم . . . أن نبيل ـ وهو جالس في الطائرة التي أقلته من فرانكفورت حتى مدينة برن السويسرية . . . لم يكن يعرف أن كل ما مرَّ به من أحداث ، لم يكن سوى تمثيلية متقنة ، وضعتها عقول مدربة ، ثم أخرجها على الطبيعة ذلك الذي أطلق على نفسه ، أو أطلقوا عليه ، اسم « أبو سليم » !

وإذا كان من المرجح ، بل من المؤكد ـ هكذا قال عادل مكي ـ إن الحقيبة التي

كان نبيل يأخذها من الأوتوبيس ـ بعد الجولة السياحية ـ إلى تلك الخزانة التي استأجرها في محطة سكة حديد هامبورج . . . لم تكن تحوي مخدرات . . . إلاَّ أنها في تلك المرة الأخيرة التي استعملت فيها لويز جولدمان كل إمكانياتها ، كي تدفعه إلى التخلي عن حرصه والتزامه بوضع الحقيبة في الخزانة فوراً والذهاب بها إلى مسكنه والحقيبة معه بطبيعة الحال . . . كانت بالقطع تحوي كمية لا بأس بها من المخدرات التي يصبح من السهل التعرف عليها حتى من غير خبير مثل نبيل المسكين ، بحيث إذا ما داهمه رجال الشرطة المزيفين هؤلاء ، وفتحت الحقيبة أمامه ، لا يساوره أدنى شك في حقيقة ما كان يحدث له أو من حوله !!

كان المطلوب ـ منذ البداية ـ أن يقع نبيل ، الذي أبدى التزاماً صارماً بتعليمات أبي سليم ، في خطأ واحد . . . خطأ يضعه بين فكي كماشة لا يستطيع منها فكاكاً مهما حاول . . . و . . . ولقد وقع نبيل في الخطأ لحظة أن ضعف أمام إلحاح لويز جولدمان ومحاصرتها إياه ، فذهب معها إلى سكنه حاملاً حقيبة مليئة بالمخدرات !

كانت تلك إذن تمثيلية متقنة ، فلم يكن الرجال الثلاثة الذين داهموا مسكن نبيل ، سوى ثلاثة من عملاء المخابرات الإسرائيلية ـ وليس مستبعداً أن يكونوا ألماناً بالفعل ! ـ أدوا أدوارهم ببراعة ، كما أدت الفتاتان مارتين وصديقتها مع فريدريك بيكر موزع المخدرات ، أدوارهم أمام ذلك الشاب المصري ببراعة قادته إلى أول خطوة في طريقه هذا الشائك !

وهكذا ، وببساطة ، وضع ذلك الداهية ـ أبو سليم ـ نبيل سالم في مأزق جعله طوع بنانه . وجعل الفكاك منه أمراً مستحيلاً بكل ما تحمل الكلمة من معنى !!.

. . . . . .

. . . . . .

عبثاً حاولت أن أعرف من عادل مكي ـ رغم العلاقة الحميمة التي ربطت بيني وبينه بمرور الوقت ـ الاسم الحقيقي لهذا الضابط الإسرائيلي الداهية الذي

أطلق على نفسه اسم « أبو سليم » . . . ولقد طال بيننا الجدل حول السبب وراء إخفاء اسمه . . . وعندما ذكرت أمامه اسم « ميخائيل باريهودا » ـ ذلك الداهية الذي أوقع في براثنه الكثيرين في أوائل الستينات . . . وأفلت من بين مخالبه الكثيرون أيضاً ، وما إن ذكرت اسم باريهودا أمامه ، حتى أطلق ضحكة أوقعتني في الحيرة ، فهي تحمل من السخرية بقدر ما تحمل من المرح . . . ولقد قال بعدها :

« لأ . . . مش هو !! » .

نظرت إليه نظرة من يسبر غور صاحبه فصاح :

« ميخائيل باريهودا في الوقت ده مكانش بيشتغل في هامبورج ! » .

مرت لحظات صمت غمغم بعدها مؤكداً :

« ثم إن باريهودا كان بيشتغل في روما قبل كده بسنين ! » .

وكان هذا صحيحاً تماماً ، فلقد كان ميخائيل باريهودا في بداية الستينات يخوض صراعاً عنيفاً ومريراً مع رجال المخابرات المصرية في روما . . . وبالرغم من ذلك ، فإن السؤال الذي يظل مطروحاً على الذهن : ما الذي يمنع من انتقاله ـ أي انتقال باريهودا ـ لبعض الوقت من إيطاليا إلى هامبورج من أجل صيد ثمين مثل نبيل سالم ؟!

ثم . . . ما الذي يمنعه من النشاط في سنوات ما بعد النكسة إذا كان لم يعتزل ؟!

وعلى كل . . . فإذا كان أبو سليم هو باريهودا أو أي رجل مخابرات آخر ، فلا بد لنا من تجميع تلك الخيوط المتعددة والمتشابكة ، لتلك القصة الغريبة التي وقعت في السنوات القليلة التي سبقت ، ثم أعقبت . . . حرب يونيو ١٩٦٧ .

. . . . . .

. . . . . .

عندما أنشئت تلك الشركة السياحية الأمريكية في هامبورج ، وكان هذا في

منتصف الستينات على وجه التقريب . . . كان نشاط المخابرات الإسرائيلية في أوروبا ، يتزايد بشكل يدعو إلى الدهشة . . . وإذا كان إنشاء فرع صغير لشركة أمريكية كبيرة في أية مدينة أوروبية أمراً طبيعياً للغاية . . . إلا أن الرجال في جهاز المخابرات المصري ، وبحسهم المتزايد بخطورة الأعيب الموساد وتنوعها . . . وضعوا تلك الشركة تحت الأنظار لمعرفة حقيقة النشاط الذي أنشئت من أجله . . . وأكاد أقول ، إن مثل هذا الأمر ، بالنسبة لجميع أجهزة المخابرات في العالم ، وليس جهاز المخابرات المصري وحده ، يعتبر من « روتين العمل » المتعارف عليه . . . غير أنه ـ للحقيقة ـ وكما نجحت لويز جولدمان في الشهور الأولى في إبعاد الشبهات عنها . . . فإن نشاط الشركة نفسه بدا طبيعياً للغاية وغير مثير لأي نوع من أنواع الشكوك، خاصة وأن تلك الشركة السياحية بالذات ، لم تلعب بالسائحين العرب الذين كانوا يلجأون إليها ، تلك اللعبة التي اشتهرت بها الموساد في تلك السنوات وهي لعبة بيوت الملذات التي كانت تقود شباب العرب إلى بيوت تمتلىء بكل ما يصبو إليه شاب يمتلك مالاً يريد أن ينفقه في ملذات رخيصة وليال مشتعلة بالجنس والمخدر والميسر جميعاً . . . ثم يفرغ ما لديه من معلومات ـ مهما كانت تافهة ـ أثناء غيبوبة مؤقتة ، أو غيبوبة قد تدوم لسنوات !!!

لم تلعب الشركة ذلك الدور أبداً ، بل حافظت ، وبشكل صارم تماماً ، على مظهرها المحترم . . . وهكذا ، وبعد مضي أسابيع ، كان لا بد وأن يتوقف البحث بالنسبة للشركة ، ولتلك الفتاة الأمريكية شيرلي هايمان !

لم يكن معنى هذا التوقف أن الرجال قد نفضوا أيديهم من الشركة والفتاة ، ففي مثل هذه الحرب السرية ، يصبح « النفس الطويل » ـ إن صح التعبير ـ أسلوباً يجب الحذر منه ومتابعته بين الحين والحين ، يصبح الغريمان في مثل هذا الموقف ، وكأن كل منهما يتربص للآخر داخل حقل أذرة . . . ولقد يصبح الكف عن البحث أو التحري تكنيكاً يلجأ إليه الجهاز المعادي وهو هنا ـ بالنسبة للشركة وشيرلي ـ جهاز المخابرات المصري . . . حتى إذا ما حدث نوع من الإطمئنان ، فلا بد ، وبالضرورة ، يحدث معه نوع من الاسترخاء ، ويصبح

التصرف أكثر طبيعية وأكثر بساطة . . . حتى إذا ما وقع خطأ ما ، أي خطأ مهما كان صغيراً ، نشط الجهاز للبحث والتحري وجمع المعلومات والسعي وراء الحقيقة من جديد !!

ولقد وقع هذا الخطأ !!

وقع عندما بدأ نبيل خطواته الأولى في تلك الشركة !

فكيف ؟!

. . . . . .

. . . . . .

في ظني أن كثيراً من الأسئلة المطروحة سوف يظل بلا إجابة محددة لوقت طويل خاصة بالنسبة لرجل المخابرات الإسرائيلي « أبو سليم » ، أو حتى بالنسبة للويز جولدمان ، التي اختفت بعد سفر نبيل ببضعة أسابيع من هامبورج دون أن يعرف مخلوق إلى أين ذهبت . . . وإذا كانت المخابرات المصرية لم تضع يدها على لويز جولدمان في شهورها الأولى في هامبورج ، رغم تعاملها معها في باريس وروما تعاملاً يجعلها معروفة للرجال تماماً . . . فلقد كان هذا راجعاً للساتر المتقن ـ وهي شركة السياحة ـ الذي وقفت خلفه هذه الفتاة المدربة ، وللتصرف الشديد الانضباط الذي التزمت به في كل تحركاتها حتى في حياتها اليومية ، قبل أن تلتقي بنبيل سالم ذلك اللقاء الذي أودى به إلى التعامل مع الشيطان في سبيل نجاح زائف . . . بل ، إننا نستطيع أن نستنتج ـ دون خوف من الوقوع في خطأ ـ أن نبيل سالم هو الآخر لم يكن موضع اهتمام الرجال القابعين خلف أسوار الصمت في كوبري القبة ففي ذلك الوقت والشهور طالت . . . وحتى عندما كان على علاقة شبه يومية مع فريدريك بيكر موزع المخدرات ، لم تجعل له أهمية من نوع خاص .

كان الخطأ الأول الذي وقع فيه أبو سليم ـ أو من خطط لتجنيد هذا الشاب لحساب المخابرات الإسرائيلية ـ هو ذلك الانتقال المفاجيء من حالة بؤس كامل وشامل كان يعيشها نبيل . . . إلى حالة استقرار كامل وشامل أيضاً ، وبلا مقدمات !

غير أنه يصبح تجاوزاً للحقيقة لو أننا ادعينا أن هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل الأنظار تلتفت ليعرف الرجال ما الذي يتم بالضبط ، فلقد كانت هناك أسباب أخرى ، ربما تبدو للمراقب أكثر أهمية !!

كان أمراً طبيعياً أن يجد شاب مصري عملاً في فرع صغير في ألمانيا ، لشركة كبيرة وذات سمعة لا بأس بها في الولايات المتحدة ! . . . ولكن أن تنشأ تلك الصداقة الحميمة بين نبيل وبين شيرلي هايمان ، وبمجرد التحاق نبيل بالشركة . . . فهذا هو ما كان لا بد وأن يلفت الأنظار ويثير العديد من الأسئلة والكثير من الشكوك !!

لماذا ؟!

لأن تلك الفتاة التي شوهدت من قبل مع فريدريك بيكر مرات عديدة دفعت بالتساؤل إلى أذهان الرجال حتى انتهى الأمر إلى القول بأنها مدمنة مخدرات ، تلتقي مع هذا الشاب الألماني لقاءات تشوبها السرية ، لأنها حريصة على مركزها الاجتماعي وصورتها الوقورة أمام الناس . . . وكان قد لوحظ أيضاً أن مس هايمان الأمريكية ذات السلوك الشديد الانضباط ، لم يكن لها من صديق أو حتى صديقة طيلة تلك الشهور التي سبقت لقاءها مع نبيل . . . وهو أمر يبدو غير طبيعي بكل المقاييس بالنسبة لفتاة أمريكية أو أوروبية في مثل سنها وجمالها . . . ولست أعتقد أني أذيع سراً إذا ما قلت إن بعض الشباب ـ ومن بينهم شاب ألماني شديد الوسامة والجاذبية ، ويتمتع بسحر خاص أرجعه البعض ممن يعرفونه معرفة عائلية ، إلى أصله المصري !!! ـ حاولوا الاقتراب من شيرلي ، أو إنشاء علاقة صداقة معها ، ففشلوا جميعاً بما فيهم ذلك الدون جوان المولود من صلب مصري ، وردتهم الفتاة رداً رفيقاً يتفق مع شخصيتها تلك التي ظهرت بها في هامبورج ، مما أكد الظن ـ في تلك الأيام ـ بأن الإدمان على المخدرات كان وراء العزوف عن مصادقة الفتيان والفتيات معاً . . . فكيف ، ولماذا وقعت ـ فور التحاق نبيل بالشركة ـ في براثن حبه دوناً عن جميع رجال الأرض ، ومنهم من يفوقه وسامة وجاذبية وسحراً ومالاً ومركزاً ؟!!

ثم . . .

ثم كان هناك خطأ آخر . . . وهو انقطاع شيرلي هايمان عن لقاء فريدريك بيكر فجأة ودون مقدمات ، وقبل التحاق نبيل سالم بالشركة ، بفترة وجيزة للغاية . . . وإذا كان المطلوب في البداية هو الإيحاء بأن تلك الفتاة مدمنة مخدرات ، فإن انقطاعها عن لقاء ذلك الشاب الألماني يصبح أمراً مثيراً للريبة تماماً . . . خاصة وأنها لم تلجأ ولم تبحث عن موزع مخدرات آخر !

وفي الحقيقة ، فلقد أدهشني أمر لقاء لويز بفريدريك وبدا لي الأمر غريباً . . . فلماذا كانت لويز جولدمان تلتقي أصلاً بفريدريك ؟! . . . وما هو الدافع وراء تلك اللقاءات ؟!

وعندما سألت عادل مكي عن هذا الأمر . . . وهل كان هذا ضعفاً في أداء المخابرات الإسرائيلية ، أم أنه كان ثغرة لم ينتبه لها رجال الموساد ؟!

أجاب عادل إن الأمر لم يكن هذا أو ذاك . . . فمن ناحية كان هناك اطمئنان عند رجال الموساد بعدم وجود نشاط يذكر للمصريين في هامبورج ، إلا بعض النشاطات المحددة التي لا يمكن لأصحابها أن يتابعوا نشاط الإسرائيليين في هذه المدينة . . . كان الإسرائيليون ـ بالقطع ـ يظنون أن النشاط المصري في تلك المدينة ضعيف وغير مؤثر أو قادر على كشف تحركاتهم !

وكان هذا خطأ فادحاً وقع فيه الإسرائيليون خاصة بعد نكسة ١٩٦٧ ، ذلك أن المصريين عندما تجمعت لديهم المعلومات بأن الشركة والفتاة شيرلي هايمان ، لا غبار عليهما . . . كمنوا تماماً ، وركنوا إلى هدوء ظاهري ، وإذا كان لهذا الكمون أو الهدوء أساليب متعددة ، فلقد اتبع المصريون أبسط تلك الاساليب وأقلها تركيباً . . . واختفى من هامبورج ، بعد فترة بدت ملائمة تماماً ، عدد بسيط من الرجال الذين حامت حولهم الشبهات بأنهم يعملون لحساب المخابرات المصرية ، وهم في واقع الأمر لم يكن لهم أية علاقة ، لا من قريب أو من بعيد ، بالمخابرات المصرية .

هكذا ابتلع الإسرائيليون الطعم ، ووقعوا في خطأ كلفهم الكثير فيما بعد . . .

فإذا ما تحدثنا عن السبب الذي من أجله كانت لويز جولدمان تلتقي فريدريك بيكر موزع المخدرات . فلقد كان بالقطع لدراسة شخصية نبيل دراسة كاملة وشاملة ، ومعرفة مواطن الضعف في شخصيته حتى تسهل السيطرة عليه . . . حقاً كان هذا ممكناً من خلال التقارير أو الدراسات التي وضعت حول شخصية نبيل . . . لكنه يبقى دائماً ، أن اللقاء المباشر ، خاصة إذا كان تحت مظلة مقنعة ـ كمظلة الإيحاء بإدمان المخدرات مثلاً !! ـ من الممكن ، بل من المؤكد ، أن يكون ذا فائدة عظمى تختصر الوقت والجهد معاً ولقد يبدو غريباً كل الغرابة ، أن الأمر لم يقتصر على هذا . . . فبرغم الدقة والبراعة التي تميز بها رجال الموساد في إنشاء الشركة واستجلاب لويز جولدمان . . . إلا أن الأخطاء ـ أثناء التنفيذ ـ أخذت تتوالى !

فلقد اختفى فجأة موزع المخدرات فريدريك بيكر !

اختفى الشاب فجأة من هامبورج ، ولأسابيع طالت أكثر مما ينبغي ، في نفس الوقت الذي بدأت فيه علاقة لويز جولدمان بنبيل سالم . . . وعندما تساءل البعض ـ خاصة من زبائن فريدريك المدمنين أو أصدقائه المقربين ـ عن سر اختفائه ، وإن كان قد قبض عليه ، جاء الرد بالنفي القاطع . . . وقيل ـ ضمن ما قيل عن سر هذا الاختفاء ـ إنه سافر في رحلة سياحية إلى جنوب إيطاليا !

فلماذا اختفى فريدريك ؟! . . .

وما الذي واكب اختفاؤه من هامبورج من أحداث ؟!

وهل هناك علاقة بين اختفائه وبين تلك الصداقة التي ازدهرت فجأة بين شيرلي هايمان ونبيل سالم ، وقد كان ذلك الشاب الألماني ، صديقاً للإثنين معاً ؟!

وهكذا وجد الرجال أنفسهم يبحثون عن إجابات على تلك الأسئلة التي بدت في تلك الفترة ذات رائحة خاصة . . . فاكتشفوا أثناء البحث مزيداً من الأمور الغامضة ، ووجدوا أنفسهم أمام مزيد من الأسئلة ، وإن كانت من نوع آخر !

وعلى سبيل المثال . . . لوحظ أن نبيل سالم ـ بعد فترة وجيزة من التحاقه بالشركة استأجر خزانة بمحطة سكة حديد هامبورج . . . ومن المعروف أن من يفعلون ذلك ، لا بد وأن يكون لديهم ما يحرصون عليه . . . فإذا كان نبيل ما كان في تلك الأيام ، فما هو الشيء الهام الذي استأجر من أجله تلك الخزانة ؟! . . . ولماذا كان ذهابه إليها يأتي بعد خروجه مع فوج من أفواج السائحين ؟!

كان هذا أيضاً سؤالاً مثيراً للدهشة . . . لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد . . . فلقد أعقب السؤال سؤال آخر عن السبب الذي كان يدفع هذا الشاب المصري إلى تغيير الخزانة كل بضعة أسابيع ، بخزانة أخرى في نفس المحطة ، كي يفعل نفس الشيء ؟!!

تلك أسئلة ظلت تطرح نفسها سؤالاً بعد الآخر دون أن تجد ، فيما هو ظاهر ، إجابات مقنعة عليها . . . وفي مثل هذه الأحوال ، يصبح البحث عن إجابة أمراً ضرورياً ، بل واجب لا بد من القيام به . . . خاصة وأن هذا الشاب المصري كانت له ظروف صعبة يعرفها كل المصريين وربما العرب الذين كانوا يقيمون في هامبورج !

هنا . . . كان لا بد من تجميع الخيوط ، وكان طبيعياً إذا ما تجمعت ، أن تتجمع معها سحب الشك في الشركة والفتاة ونبيل جميعاً . . . و . . . ويقيناً ، فلقد كانت هذه هي الخطوات الأولى التي كشفت عن ذلك المخطط الجهنمي الذي لم يكن يستهدف نبيل وحده بطبيعة الحال ـ وهذا ما نود هنا أن نسجله وأن نلح عليه وننبه له !! ـ بل أعقبته ، وربما واكبته ، عمليات أخرى اتسمت بقدر كبير من الخطورة ، وإن كان الوقت لم يحن بعد للكشف عنها !!

ثم كان يوم . . .

كان هذا يوم من أيام خريف ١٩٦٧ ، ومصر تظللها سحابة من حزن وضياع بلا حدود ولقد وصلت في ذلك اليوم برقية ـ أو الأغلب أنها رسالة ـ شفرية تحكي في كلمات موجزة ، عن التقاط قام به رجل المخابرات الإسرائيلي « أبو سليم » ، لشاب مصري اسمه نبيل سالم !!!

جاءت هذه البرقية ـ أو الرسالة ـ وكأنها إجابة على كل سؤال ، ومفتاح لكل لغز . . .

قال لي عادل مكي إن أبا سليم لم يكن مقيماً في هامبورج في ذلك الوقت ، بل كان مركز نشاطه في عاصمة أوروبية أخرى رفض أن يبوح لي باسمها . . . وإنه كان يذهب إلى هامبورج في زيارات خاطفة لا تستمر لأكثر من يوم أو يومين ينجز خلالهما ما يريد إنجازه مع نبيل سالم أو غيره ، ثم يعود إلى مقره مرة أخرى دون أن يشعر مخلوق بأنه غادر المدينة أو حتى الدولة كلها . . . وكانت هذه بالقطع براعة لا بد من الاعتراف بها . . . ذلك أن أحداً لم ينتبه إلى تلك الزيارات ، وبالتالي ، فإنَّ تواجده في هامبورج كان بعيداً بالفعل عن الأذهان !

هكذا . . . فإننا نستطيع أن نرجح أن المخابرات المصرية لم تكن تعرف شيئاً عن لقاءات نبيل بأبي سليم السابقة . . . وقد يخامرنا الظن بأن المرة الأولى التي شوهدا معاً فيها ، هي مرة من تلك المرات التي كان نبيل يلتقي فيها بأبي سليم كي يأخذ منه حقيبة أوراقه الخاصة بالشركة ، بعد إيداع حقيبة المخدرات المزعومة في تلك الخزانة بمحطة سكة حديد هامبورج . . . وإذا كانت البرقية الشفرية قد تحدثت عن « التقاط » قام به ضابط مخابرات إسرائيلي لشاب مصري ، فإن هذا الأسلوب في اللقاء كان معروفاً بالنسبة لعدد كبير من أجهزة المخابرات ، خاصة المخابرات المصرية بعد أن اكتشفت واحداً من أخطر الجواسيس في القاهرة أثناء عملية التقاط مماثلة !

لم يكن أبو سليم ـ بعد أن يودع نبيل الحقيبة في الخزانة ـ يلتقي بهذا الشاب بأسلوب واحد بطبيعة الحال ، كان الأسلوب يتغير في كل مرة . . . ولقد كانا ـ مثلاً ـ يلتقيان أحياناً في شقة نبيل الجديدة ، ومرة أخرى في واحد من تلك المحلات الهادئة الخافتة الإضاءة . . . ومن أساليب اللقاء ، كان ذلك « الالتقاط » الذي تحدثت عنه البرقية . . . فكان يكفي أن يغادر نبيل البيت في ساعة معينة وكأنه في طريقه لشراء شيء يحتاجه ، وقد يشتري بالفعل أي شيء ، ثم وعندما يطمئن تماماً إلى أن أحداً لا يتبعه ـ كان أبو سليم بالقطع قد

دربه على هذا ـ توقفت إلى جواره سيارة ما ، ذات علامة خاصة أو لون خاص أو رقم خاص ، وما كان عليه إلا أن يدلف إلى السيارة بسرعة وبشكل طبيعي تماماً ، كي تنطلق به إلى بعيد !

أغلب الظن أن علاقة نبيل بأبي سليم قد اكتشفت في إحدى تلك المرات . . . وكان يكفي أن ترسل صورة أبو سليم ، أو حتى أوصافه ، حتى يتعرف عليه الرجال في الحال !

ومن المؤكد أن نبيل سالم في ذلك الوقت لم يكن يعرف شيئاً عن طبيعة عمل أبو سليم، أو من يكون، أكثر من أنه تاجر مخدرات داهية . . . ولذلك ، فبعد بضعة أيام من وصول تلك البرقية إلى القاهرة ، هبط إلى هامبورج شاب مصري في مقتبل العمر ، وقيل وقتها إنه نقل إلى فرع من فروع شركة ملاحية مصرية أنشيء هناك لخدمة السفن المصرية التي كانت ترسو في ذلك الميناء الألماني الشهير والكبير ، وسرعان ما عُرف هذا الشاب وسط تجمعات المصريين والعرب في تلك المدينة . . . وعندما التقى ذات مرة بنبيل سالم ، كان لقاؤهما حاراً ، وإذا كان نبيل يعمل في شركة سياحية ، فإن تلك الشركة المصرية كانت تبحث عن ركاب أو سائحين يستعملون سفنها ذات الأسعار الرخيصة ، إما في السفر ، أو في جولة سياحية تطوف فيها بركابها موانيء جنوب أوروبا أو إفريقيا حتى تصل في النهاية إلى الإسكندرية ، ثم تعود بهم على نفس الخط ، إلى هامبورج من جديد . . . وهي رحلات اشتهرت كثيراً في الستينات ، وكان زبائنها عادة من المحالين إلى المعاش أو من الشبان والشابات الصغيري السن الذين يرغبون في رحلة تمتد إلى شهور . . . ولا يدفعون فيها كثيراً !!

ويبدو أن صداقة ما قد نمت بين هذين الشابين المصريين فلقد كانا يلتقيان دائماً ، ثم انقطعت علاقتهما فجأة عندما اتُّهم نبيل ذلك الشاب بأنه يريد أن يخرب عليه عمله !!

حدث هذا عندما راح ذلك الشاب الوافد على هامبورج ـ والذي لا أستبعد أن يكون عادل مكي أو واحداً من مساعديه ـ يبصر نبيل بخطورة التعامل مع

شركان غامضة الأهداف ، عارضاً عليه وظيفة في شركة الملاحة المصرية . . . لكن جهود الشاب كللت بالفشل ، فلقد هتف به نبيل ذات مرة :

« بقي أنا هربان من مصر ، عاوز إنت تجيبها لي هامبورج ؟! » .

ولست أدري إن كانت هناك محاولات أخرى قد بذلت كي يتجنب مصيره ذاك التعس . . . لكن المؤكد أنه رفض أية نصائح همس بها مخلصون في أذنه ، ورفض كل العروض التي قدمت له !!

وهكذا ، وبمحض اختياره ، سار نبيل في الشوط حتى نهايته . . . وحتى وجد نفسه يجلس في إحدى الطائرات ، في طريقه من مدينة فرانكفورت في ألمانيا الغربية ، إلى مدينة « برن » السويسرية ! . . . مطارداً من البوليس الألماني ، مستعملاً لجواز سفر مزور !

* * *

كانت المضيفة تبدو أوروبية تماماً . . . هي شقراء ، جميلة ، ذات جسد متناسق وعينين زرقاوين وحركة رشيقة شأنها شأن المضيفات في شركات الطيران العالمية . . . وكانت أمامه طوال الوقت منذ أن غادرت الطائرة مطار فرانكفورت دون أن يبدو عليها أية علامة تنبيء أنها تعرفه . . . حتى إذا أعلن في ميكروفون الطائرة ، عن قرب هبوطها في مطار برن ، وطُلب من الركاب أن يربطوا الأحزمة ويكفوا عن التدخين . . . مالت عليه تلك المضيفة الحسناء كي تساعده في ربط الحزام وإعادة مسند المقعد إلى وضعه الرأسي ، لكنها ، وبطريقة بدت لنبيل مذهلة لفرط بساطتها ، أسقطت في حجره ورقة صغيرة وهي تهمس بعربية ذات لكنة لبنانية :

« أبو سليم بيريدك تروح هادا العنوان أول ما تغادر الطيارة ! » .

كانت الليلة قد انقضت دون أن يذوق فيها نبيل للنوم طعماً ، وهو لم يكن يدري إلى أين هو ذاهب ، أو ما الذي سوف يحدث في الساعات القادمة . . . انصرفت الفتاة فور إلقاء الرسالة إلى عملها في نشاط ، وامتدت يد نبيل إلى الورقة التي تحوي العنوان فقبض عليها ثم دسها في جيبه وهو يتذكر ـ بقليل من

القلق ـ إنه إذا كان سوف يدخل سويسرا ، فلا بد وأن يكون حاصلاً على تأشيرة دخول . . . فهل استطاع أبو سليم أن يحصل على هذه التأشيرة ، في ذلك الوقت من الليل ؟!

أخرج جواز سفره المزور وراح يقلب صفحاته التي امتلأت بتأشيرات لبلاد أوروبية عديدة ، ثم توقفت عيناه عند صفحتين متقابلتين ، كانت الأولى تحمل تأشيرة دخول إلى سويسرا ، والثانية وضع عليها خاتم القنصلية الإيطالية في هامبورج !!

إجتاحت الدهشة جوانح نبيل سالم فراح يقلب الأمر في ذهنه ، ثم تخلص من الحيرة عندما تذكر النقود التي أعطاها أبو سليم للشرطي الألماني ولا بد أن لهذا الرجل صلات غير عادية . . . ولقد حاول نبيل ـ قبل مغادرته الطائرة ـ وعند نهوض الركاب وزحفهم نحو الباب ، أن يرى أبو سليم أو يلمحه دون جدوى . . . وحتى عندما نفذ إلى صالة الوصول بالمطار ، لم يكن عدد الركاب كبيراً ، لذا . . . فلقد راح مرة أخرى يبحث عن أبي سليم دون أن يعثر له على أثر ، مما بعث بالقلق إلى نفسه ، لكنه لم يكن يملك سوى اتباع تلك التعليمات التي وصلته من مضيفة الطائرة . . . فما أن غادر المطار حتى ألقى بنفسه داخل أقرب سيارة أجرة صادفته ، أعطى للسائق العنوان محاولاً الحديث معه بالألمانية تارة وبالإنجليزية تارة أخرى . . . حملته السيارة إلى المدينة مخترقة شوارعها حتى أوصلته إلى بيت صغير يقوم في شارع شديد الهدوء . . . غادر التاكسي حاملاً حقيبته الصغيرة ناظراً في العنوان المكتوب في الورقة ، رافعاً رأسه نحو رقم البيت ، وما أن همَّ بالاقتراب من باب البيت حتى سمع من خلفه صوتاً يناديه :

« تعالى يا نبيل ! » .

التفت نبيل وفزع ، كان التاكسي قد مضى إلى حال سبيله وسيارة أخرى تقف الآن في مكانه وكأنها جاءت سابحة في الهواء بلا صوت . . . داخل السيارة كان أبو سليم يقبع في المقعد الخلفي فدلف نبيل إلى جواره ، وانطلقت السيارة بهما فوراً .

« إحنا رايحين فين يا بو سليم ؟! » .

هكذا سأل نبيل فغمغم الرجل في لا مبالاة :

« دلوقت تعرف ! » .

وعاد الصمت من جديد !

كان من الواضح أن السيارة تخترق المدينة في طريقها إلى الطريق السريع . . . ولقد كان نبيل في تلك الساعات ، ورغم الإجهاد والتعب وقلة النوم ، يلوك في ذهنه أسئلة راحت تتفجر واحدة بعد الأخرى . . . وبصرف النظر عن ذلك السؤال الملح عن كيفية حصول أبو سليم على تأشيرتي الدخول إلى سويسرا وإيطاليا بمثل تلك السرعة التي تم بها الأمر . وفي مثل ذلك الوقت الذي يستحيل فيه الحصول على التأشيرة من القنصلية . . . بصرف النظر عن هذا السؤال الكبير ، فلقد راح يتساءل ، وقد رأى تأشيرة الدخول إلى إيطاليا ، وأدرك أنهم في طريقهم إلى الحدود السويسرية الإيطالية ، فلماذا لم يركبا الطائرة من فرانكفورت إلى إيطاليا مباشرة ؟!

فيما بعد فسر له أبو سليم تلك النقطة بالذات بأنها زيادة في الحيطة . . . وإذا كان ذلك الشرطي الألماني قد أخلى سبيله على أن يذهبا إليه في صباح اليوم التالي ، فإنه أمام القانون لم يكن يملك شيئاً ، وكان لا بد من إحالة الأمر إلى القضاء ، ولما كان أبوسليم غير مستعد للتضحية بصديقه لخمسة وعشرين عاماً قادمة يقضيها نبيل في السجون ، فلقد كان لا بد من تهريبه . . . ولكن من يدريه أن هر براون لم يرسل خلفه من يتتبع خطاه ويراقب بيته . . . ولذلك ، كان لا بد لمسار الرحلة أن يتنوع حتى يضمن أبو سليم تماماً ، أن أحداً لا يتبعهما !!

هكذا فسر أبو سليم الأمر فيما بعد لنبيل ، لكنه بالقطع لم يذكر له السبب الحقيقي وراء سفرهما ، وليومين متتاليين ، قرابة ألف ميل بوسائل مواصلات مختلفة ودون توقف أو راحة أو نوم .

وقف عقل نبيل عن الحركة عندما حملتهما السيارة من برن إلى جنيف ،

ومن جنيف إلى الجنوب حيث عبرا الحدود السويسرية الإيطالية ، ثم انحدرا إلى « ميلانو » عاصمة الشمال الإيطالي ، وفيها تناولا وجبة سريعة ركبا بعدها القطار إلى روما ، وفي روما استقلا سيارة إلى نابولي حيث كانت نهاية المطاف !!

... ...

... ...

قال نبيل فيما بعد ، إنه ما تمنى شيئاً في حياته بنفس القوة والحرارة التي تمنى بهما في ذلك اليوم أن يغفو عيناه للحظات ، سواء في الطائرة ، أو السيارة ، أو القطار . . . رافقه أبو سليم في بعض من الطريق ، وانفصل عنه في البعض الآخر . . . وصلت السيارة إلى نابولي بعد منتصف الليل ، كان الإجهاد قد أخذ منه الآن كل مأخذ فبدا له الأمر كله وكأنه حلم أو كابوس ظل يضغط عليه لحظة بعد أخرى . . . وكان مما ضاعف توتره طوال تلك الرحلة المضنية ، أن أبا سليم راح يتعامل معه بجفاء شديد . . . وكان الصمت هو اللغة الغالبة بينهما حتى صاح نبيل ذات لحظة :

« يا بو سليم أنا حاتجنن ، كلمني ، اشتمني ، اعمل أي حاجة بس بلاش الأسلوب ده ! » .

كان نبيل ينزلق ، في كل لحظة ، إلى حالة رهيبة من الإنهيار كان مطلوباً أن يصل إليها . . . وفي أحد شوارع نابولي الجانبية ، في حي من أحيائها المتوسطة ، توقفت السيارة أمام بيت مكون من طابقين . . . بدا البيت في ظلام الليل كالشبح الرابض في انتظار فريسة . . . بجوار باب الحديقة من الداخل كان ثمة كشك خشبي يجلس بداخله عملاق طمست ظلال الضوء الخافت في الكشك ملامح وجهه ، وإن بدا جسده ـ على البعد ـ كالطود الهائل يكاد يشغل فراغ الكشك كله . . . التفت نبيل نحو أبو سليم الذي قال :

« شايف الراجل اللي في الكشك ده ؟! » .

« أيوه ! » .

« قول له إنك عاوز تشوف سنيور جيوفاني ! » .

قال أبو سليم هذا فأحس نبيل بالحيرة :

« وبعدين ؟! » .

« ولا قبلين . . . هو حايقول لك على كل حاجة ! » .

« ومين سنيور جيوفاني ده ؟! » .

أطلقت عينا أبو سليم نظرة صاروخية بعثت بالرعب إلى قلب الشاب الذي كاد يسقط في مكانه من فرط الإعياء والقلق معاً ، من بين أسنانه قال الرجل :

« من غير أسئلة . . . اللي أقول لك عليه تعمله ، ولا تنساش إن جوازات السفر اللي معاك مزورة ، وإنك ضيعت على المنظمة كذا مليون ليرة لمجرد إنك ما سمعتش الكلام ولا نفذتش التعليمات ! » .

مضت لحظة صمت قذفه بعدها أبو سليم بكلمة كالحجر :

« اتفضل !! » .

ووجد نبيل نفسه يغادر السيارة حاملاً حقيبته دون كلمة . . . خطا نحو باب الحديقة خطوتين ثم عَنَّ لَهُ ، من فرط الرعب ، أن يسأل أبا سليم متى سيراه مرة أخرى ، غير أنه ما أن استدار نحو السيارة حتى رآها وهي تنطلق بسرعة مبتعدة عنه . . . ووجد نبيل نفسه يقف في مدينة لم تطأها قدمه من قبل ، ولا يعرف فيها أحداً ولا يملك من عملتها فلساً . . . وكان جائعاً ، والليل قد انتصف منذ ساعة أو يزيد قليلاً !

... ...

... ...

تقدم من العملاق الجالس في الكشك ودق بأصبعه على زجاج النافذة على الطريق ، فالتفت هذا إليه ، ورفع نبيل يده بتحية لم يردها الرجل ، مال على النافذة وكان لا بد له أن يصيح حتى يصل الصوت عبر الزجاج إلى الرجل ، فسأل عن سنيور جيوفاني . . . كشر الرجل عن أنيابه وقال كلاماً لم يسمعه نبيل ، لكن ما لبث أن فتح النافذة مزمجراً :

« ماذا تريد في مثل هذه الساعة بحق الشيطان ؟! » .

قالها الرجل بالإيطالية فلم يفهم نبيل شيئاً لكنه عاد فسأل عن سنيور جيوفاني بالإنجليزية . . . تهللت أسارير العملاق وهو يهتف متسائلاً :

« سنيور نبيل ؟! » .

« سي . . . سي ! » .

وهكذا أغلق العملاق النافذة ورفع سماعة تليفون كان إلى جواره وتحدث ببضع كلمات أعاد بعدها السماعة ، وفتح النافذة وهو يطلب من نبيل الدخول !

تحرك نبيل نحو باب الحديقة المغلق ، لكنه ما أن اقترب منه حتى فتح الباب فأدرك أن ثمة زراً كهربياً يتحكم فيه داخل الكشك . . . لم تكن حديقة البيت كبيرة أو واسعة وهي أيضاً لم تكن مضاءة . . . ففيما عدا مصباح صغير خافت كان معلقاً عند باب البيت ، لم يكن هناك ضوء على الإطلاق فكان الظلام دامساً والسماء ملبدة بغيوم الخريف الكثيفة . . . وكان الطريق المؤدي إلى البيت عبر الحديقة مرصوفاً بحجر ذا ألوان طمسها الظلام . . . قبل أن يصل إلى نهاية الممر ببضع خطوات فتح باب البيت ونفذ منه عملاق آخر يرتدي ملابس السهرة ، وقبل أن يفتح نبيل فمه بالسلام أو السؤال أشار له العملاق إلى الباب المفتوح فدلف هذا منه كي يجد نفسه في بهو متوسط الإتساع لكنه يحمل كل عراقة العمارة الإيطالية . . . في الصدر ، إلى اليسار قليلاً ، سلم عريض يؤدي إلى الطابق العلوي . . . على يمين الداخل رأى نبيل باباً مفتوحاً نفذ منه العملاق طالباً منه أن يتبعه . . . قادهم الباب إلى سلم ينحدر إلى أسفل ، في نهاية السلم كان ثمة باب حديدي يؤدي إلى قبو مليء ببراميل النبيذ وزجاجاته . . . زكمت رائحة القبو أنف نبيل لكنه تبع الرجل دون كلمة وكأنه مشدود إليه بقوة قاهرة . . . في نهاية القبو نفذ العملاق من باب انحنى حتى يستطيع المرور منه فتبعه نبيل ، ما أن نفذ من الباب حتى وجد نفسه في بهو متوسط الإتساع يكاد أن يكون خالياً تماماً من الأثاث . . . على جنبات البهو كانت هناك أبواب مغلقة ، في الصدر لاحظ نبيل باباً مفتوحاً لإحدى الغرف . . . أشار العملاق إلى ذلك الباب طالباً من نبيل الدخول . . . تقدم نبيل نحو الباب وهو يظن أنه سوف يلتقي في تلك الغرفة بالسنيور جيوفاني ،

لكنه ما كاد يخطو فيها خطوة واحدة حتى تسمر في مكانه وكأنما أصابته صاعقة . . . كانت الغرفة شديدة الضيق مرتفعة السقف ملساء الحيطان عارية الأرض . . . على ارتفاع ما يقرب من ثلاثة أمتار كان ثمة نافذة تتخللها قضبان حديدية . . ارتد إلى الوراء ملتفتاً نحو العملاق فواجهته لكمة هائلة أطاحت به عبر الغرفة إلى الجدار المقابل للباب . . . ارتطم جسد نبيل بالجدار ، وقبل أن ينتبه أو يفيق مما حدث . . . كان الباب قد أغلق عليه ، وصنع صوت المزلاج في الخارج ، دوياً كان له في صدره صدى الموت نفسه !

* * *

الفصل الرابع عشر

البقاء للأذكى !

اختفى نبيل سالم فجأة من مدينة هامبورج . . . وعبثاً حاول المصريون أن يعثروا له على أثر ، أو أن يعرفوا مصيره . . . وعندما ذهب بعض أصدقائه للسؤال عنه في شركة السياحة التي كان يعمل بها كان منهم مصريين كما كان من بين الذين سألوا عنه ، شاب ألماني صارم التقاطيع اسمه هانز ، وقال هانز هذا إن نبيل سالم مدين له ببعض المال !! ـ استقبلتهم شيرلي هايمان بفتور قائلة في اقتضاب : « إن هر سالم قدم استقالته ورحل دون أن يترك عنوانه قبل الرحيل ! » .

وعندما ذهب بعضهم إلى مسكنه لم يكن حظهم أحسن حالاً . . . فلقد كان المسكن لا يزال باسمه . . . وقالت مديرة البيت : إنه كان موجوداً حتى ثلاث ليال مضت وكان معه بعض الأصدقاء ، لكنهم غادروه قبل منتصف الليل . . . ثم غادر هو البيت بعد ذلك ، ولقد ظنت أنه خرج لأمرٍ ما كعادته ، وإنه لا بد سيعود قبل الصباح ، لكنه لم يعد . . . وعندما همَّ الصديق بالإنصراف ، لاحقته السيدة قائلة :

« عليك أن تنذر صديقك بأنه إن لم يعد خلال أربعة أيام ، فلسوف أؤجر المسكن لشخصٍ آخر ! » .

وهكذا أدرك المصريون ، أن الأمر لا يحتمل سوى شيء من إثنين :

إما أن نبيل طوال الفترة الماضية ، كان يُعَدُّ للقيام بدورٍ ما في مكان آخر ، وهو الاحتمال الذي كان غالباً . . . وإما أن مكروهاً قد وقع له فاختفى دون أن يترك أثراً وراءه !!

وفي حقيقة الأمر ، فلقد كان هذا الإحتمال الأخير واهياً تماماً ، بل لا يكاد يستند إلى دليل أو حتى فكرة منطقية . . . ذلك أنه من غير المعقول أن تتم مثل تلك السيطرة على شخصية مثل شخصية نبيل ، ويُبذل معه كل هذا الجهد ، وعلى مدى شهور طالت ، ثم يتم بعد ذلك التخلص منه لأي خطأ مهما كان . . . ولذلك ، فلقد ساد الإحتمال الأول ، فكان لا بد من الاستعداد له ، بسرعة !!

وفي ظني ـ وهذا تقدير شخصي لا يستند إلى معلومات ! ـ أن عادل مكي نفسه طار إلى هامبورج عندما وصله خبر اختفاء نبيل المفاجيء . . . وإذا كان عادل قد استبعد أن يكون سبب اختفاء نبيل هو حدوث مكروه له . . . فلقد كان على هذا الضابط الشاب ، أن يباشر الأمر بنفسه ، وأن يعيش في الساحة التي تمت فيها كل تلك العمليات المُرَكَّبة والتي كان الآن يعرف بعضها ويتكهن بالبعض ويجهل البعض الآخر . . . خاصة ، وأن أبا سليم ، ولأسبوع انقضى منذ اختفاء نبيل ، كان قد اختفى هو الآخر ولم يعد يظهر في هامبورج . . . وعندما تجمعت كل المعلومات التي أمكن الحصول عليها ، وجد عادل نفسه أمام أمر واحد لا مفر منه . . . وهو مراقبة لويز جولدمان ـ وكان الآن قد اكتشف من تكون تلك الفتاة الغامضة والخطرة ـ مراقبة دقيقة لا تجعلها تغيب لحظة عن عينيه ! . . . ذلك أنه ـ بحس المدرب ـ شعر أن في الحركة القادمة لتلك الفتاة ، يكمن مفتاح السر الذي سوف يشير إلى مصير نبيل أو مكانه !

. . . . . .

. . . . . .

إذا كان هناك من يقول بأن البقاء للأصلح ، وهناك من يرد بأن البقاء للأقوى . . . فإن عادل مكي كان من الذين يؤمنون بأن كلا القولين كانا نتاجاً لفلسفات انقرضت ، وأن البقاء في العصر الحديث سيكون من نصيب الأكثر ذكاءً . . . ذلك أن تلك اللعبة الجهنمية التي كان يخوض غمارها منذ سنوات هي في الأصل لعبة « ذكاء » ، وعليه . . . فلقد كان لا بد له من أن يشحن كل أسلحة ذكائه وفطنته ، حتى لا يفلت نبيل من يديه ، وحتى لا ينتصر العدو !!

وهكذا . . . وفي غرفة بسيطة في مسكن بسيط لموظف صغير في فرع خامل من فروع إحدى الشركات المصرية القليلة في هامبورج ، جلس عادل مكي ذات ليلة كان البرد فيها قارساً ، مع ثلاثة من الشباب المصري . . . كان أولهم صاحب المسكن ، أما الثاني فكان رث الملابس يعمل ساقياً في حانة من حانات الميناء اشتهرت بروادها من العرب . . . وكان الثالث يبدو صغير السن أكثر مما ينبغي ، أنيق إلى حد الإفراط ، كان يبدو وكأنه ابن لأحد الأثرياء جاء يدرس في أحد معاهد تلك المدينة الشهيرة . . . وكان على عادل مكي الآن أن يضع معهم خطة محكمة لمراقبة كل خطوة وكل حركة لتلك الفتاة لويز جولدمان . . . ولأن عادل كان في مرحلة من المراحل قد تعامل معها ، فلقد راح يشرح للثلاثة كل شيء عنها . . . وانخرط الجميع بعد ذلك في مناقشة الخطوات اللازمة لمراقبة تلك الفتاة التي كانت الوحيدة التي بقيت في المدينة بعد اختفاء أبطال اللعبة واحداً بعد الآخر : فريدريك أولاً ، ثم نبيل سالم وأبو سليم معاً !!

« غير انه لا بد لنا أن نطرح هنا حقيقة هامة . . . وهي أن عادل مكي ، في الأسابيع التي انقضت منذ شوهد نبيل سالم مع أبي سليم ، كان قد عرف عن نبيل ، في مصر ، كل شيء منذ أن ولد وحتى سافر هرباً من فشله إلى حيث لم يكن يدري وإلى حيث ألقاه طموحه . . . ولقد قال لي ذات مرة إن كل العناصر التي تجمعت لديه في القاهرة ، كانت تبدو طبيعية ومنطقية ، فيما عدا عنصر واحد استوقفه . . . ذلك العنصر هو علاقة نبيل سالم بسامية فهمي ، وذلك الحب الغريب الذي كانت تكنه تلك الفتاة الملتهبة بالوطنية لذلك الشاب الذي لم يكن يعنيه شيء في الدنيا سوى الحصول على نجاح مزيف . . . وهو ، في أول الأمر ، لم يفاجأ بأن سامية على علاقة عاطفية مع نبيل سالم ، لم تدهشه العلاقة في البداية . . . لأن بعضاً من العملاء والجواسيس ، يبدون في حياتهم المرئية والمعلنة ، من أشد الناس حماساً للعمل الوطني ، ويصبح طبيعياً أن تدفعهم حماستهم وعملهم الدائب ، إلى فروع عديدة لنشاطات مختلفة ومناطق حساسة ، ويكون الغرض من كل هذا هو الحصول على المعلومات . . . ولذلك فلقد وضع سامية تحت بؤرة رقابية شديدة الصرامة . . . لكن الأيام أثبتت له شيئاً آخر غير ما ذهب إليه ظنه ، أثبتت له الأيام أن سامية عنصر

يختلف ، وأن حب الوطن يسري في عروقها مسرى الدم . . . وكان هذا ـ بالقطع ـ من دواعي سعادة غمرته !!

. . . . . .

. . . . . .

بالرغم من أن لويز جولدمان ـ أو شيرلي هايمان ـ عادت إلى حياتها الطبيعية ـ تلك الحياة التي كانت تحياها قبل أن تلتقي بنبيل سالم ـ دون أدنى قدر من التغيير ، إلا أن عادل مكي كان موقناً من أنها ستغادر ألمانيا بعد أسابيع ، وربما بعد أيام لن تطول !

كان تقديره للموقف الآن ، أن الخطوة الأولى في تجنيد نبيل سالم والسيطرة عليه قد تمت على أكمل وجه ، وأنه الآن انتقل إلى خطوة أخرى ، هي خطوة ممارسة ما كانوا يعدونه له . . . وإذا كان عادل مكي يستطيع أن يبث عيونه في كل عواصم أوروبا حيث تجمعات المصريين في بعض من مدنها الشهيرة ، حتى يعثر على نبيل سالم . . . إلا أنه كان موقناً من أن الخطوة التالية للويز جولدمان ، هي التي ستحدد بالضبط إن كان على صواب فيما ذهب إليه !

ولقد قال في تلك الليلة القارسة البرد ، للشبان الثلاثة الذين اجتمع بهم ، إن أي خطأ مهما كان بسيطاً ، كفيل بأن يشير إلى وجود المصريين في هامبورج ، وهذا ما يجب أن يتجنبه كل منهم بأقصى ما يستطيع من حرص حتى لا يشتد الغموض كثافة ، ويصبح العثور على نبيل سالم كالعثور على إبرة ضاعت في كومة من القش !

طال بينهم الجدل حول بعض الخطوات ، حتى إذا أصبح كل شيء واضحاً ومحدداً . . . سمعوا على باب البيت دقات معينة ، التفت بعدها صاحب البيت نحو عادل قائلاً :

« هانز وصل ! » .

وكان هانز هذا هو نفس هانز الذي ذهب إلى شركة السياحة للسؤال عن نبيل . . كان شاباً ألمانياً بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، وكان فناناً يرتاد

الحانات ويتخذ من بعض روادها نماذج للوحاته ، وكان بالفعل قد التقى بنبيل في إحدى تلك الحانات وصادقه ثم فترت العلاقة بينهما بعد ذلك ، وقال نبيل يومها معللاً الأمر : إن أشد ما يعيب هانز أنه « ألماني جداً » ، إلا أنه صارم في معاملاته مع الناس ، منضبط كالساعة ، صلب الرأي . . . لكن أكثر عيوبه بالنسبة لنبيل ، أن التعامل معه صعباً ، فهو لا يتقن غير الألمانية ، ولا يعرف كلمة واحدة من أية لغة أخرى غيرها !!

لكن الشيء الغريب الذي حدث في تلك الليلة ، أن هانز ـ منذ أن دخل المسكن ـ راح يتحدث بالعربية بلهجة مصرية وكأنه تربى في شوارع القاهرة وحواريها . . . وعلى كل ، فلقد كان عادل مكي قد عهد إلى هانز بمهمة جاء هذا كي يعرض عليه نتائجها !

« إيه الأخبار يا أخ هانز ؟! » .

هكذا سأله عادل فردَّ على الفور :

« أنا جاهز ! » .

« طب نتفرج !! » .

فتح هانز دوسيهاً كبيراً من تلك التي يستعملها الفنانون وأخرج منه ست لوحات لفتاة واحدة !! . . . كانت اللوحات الست التي رسمها هانز للويز جولدمان أو شيرلي هايمان . . . غير أن كل لوحة كانت تمثل شخصية قائمة بذاتها . . . مع اللوحات تساقطت صور عديدة لشيرلي هايمان في أوضاع مختلفة وهي ترتدي نظارتها الطبية وتعقص شعرها إلى الخلف ، فهكذا كانت منذ ظهرت في هامبورج . . . لكن اللوحات الست كانت مختلفة . . . فواحدة منها كانت لشيرلي هايمان وهي ترتدي نظارة شمسية وجونلة شديدة القصر ـ ميكرجوب ـ وجاكيت سميك ذا ياقة من الفراء . . . وكانت اللوحة الثانية لفتاة سمراء الشعر لها مواصفات مختلفة . . . و . . . والثالثة . . . والرابعة . . . و . . . وكان هذا هو التصور الذي وضعه الفنان الألماني هانز لشيرلي هايمان إذا ما أرادت التنكر . . . ولقد ألقى عادل مكي نظرة فاحصة على تلك اللوحات ثم قال للشبان الثلاثة إن عليهم أن يدرسوا تلك اللوحات بعناية شديدة . . .

« لأن لويز جولدمان ساعة ما تحب تسيب البلد ، مش حاتسافر زي ما هي . . . لازم تغير شكلها علشان يبقى صعب التعرف عليها ، وبالتالي ، معرفة البلد اللي هي رايحاها ! » .

وهكذا . . . راحوا جميعاً يدرسون تلك الإمكانيات التي تصورها هانز لتنكر لويز جولدمان . . . وأخذوا يتبادلون اللوحات ويتناولونها من واحد إلى آخر ، ويناقشون الأمر فيما بينهم وقد استغرقوا فيه تماماً !

* * *

قبل أن ينقضي نهار اليوم التالي لتلك الليلة ، كانت هناك مفاجأة في انتظار عادل مكي . . . فلقد ظهر مرة أخرى ـ فجأة ـ موزع المخدرات الألماني فريدريك بيكر ، عاد من أسبانيا ـ التي قيل إنه ذهب إليها في إجازة ، والغريب ، أن التحريات أثبتت أنه بالفعل كان في إحدى مدن أسبانيا الجنوبية ! ـ عاد متورد الوجه أسمر البشرة مشرق مرح كعادته . . . ولقد قال لي عادل مكي وهو يحكي لي عن تلك الفترة ، إنه كان قد استعد للعودة إلى القاهرة في اليوم التالي تاركاً الأمر للرجال هناك . . . لكن ظهور ـ أو عودة ـ فريدريك بيكر الذي أثبتت التحليلات ثم التحريات وجود علاقة بينه وبين أبي سليم ، جعله يعدل عن السفر ليوم آخر أو يومين ، فلقد كان في عودة ذلك الشاب الألماني المبكرة ، إشارة صريحة إلى غفلة الإسرائيليين عن وجود المصريين هناك، كانت عودته إشارة إلى إحساسهم بأنهم يقفون في الملعب وحدهم ـ!!!ـ ولقد عاد فريدريك كي يمارس نشاطه بشكل طبيعي تماماً . . . ومنذ اللحظة الأولى عدلت خطة المصريين ، فلقد كان لا بد لهم من حصاره هو الآخر ومتابعته لعلهم يعرفون منه شيئاً . . . لكن فريدريك لم يسأل إطلاقاً عن نبيل سالم ولم يذكره ـ وكان هذا بالقطع مما يلفت النظر !! ـ وعندما قيل له ذات مساء في أحد تلك المواخير التي كان يرتادها بعد منتصف الليل إن نبيل قد اختفى فجأة ، هز كتفيه ومطَّ شفتيه ولم يبد عليه أي نوع من أنواع الاهتمام وكأنه لم يعرفه ولم يلتق به يوماً . . . ليس هذا فقط ، فلقد راحت أخطاء الإسرائيليين تتوالى نتيجة ذلك الإحساس الواثق بعدم وجود المصريين . . .

ذلك أن لويز جولدمان ، وقد كانت تلتقي بذلك الشاب الألماني تلك اللقاءات السرية الشبه منتظمة ، ثم انقطعت عن لقائه بعد التحاق نبيل سالم بشركة السياحة ، لم تفكر ، ولم يحدث أن التقت بفريدريك بعد عودته ولا مرة . . . بل ، وعندما تصادف أن التقيا ذات مرة في أحد المطاعم ، تجاهل كل منهما الآخر وكأنه لا يعرفه !

بعث كل هذا بالأمل إلى نفس عادل مكي ، فلم يكن له معنى سوى أن الإسرائيليين كانوا موقنين أن المصريين لا يعرفون شيئاً ، بل يكاد يعني ، أنهم كانوا موقنين أن المصريين ليس لهم أي نشاط يعتد به في هامبورج . . . وهذا ما كان عادل مكي يريده بالضبط ! ، فلقد جعل الأمر أكثر سهولة بالنسبة إليه !

ولقد حدث ما توقعه تماماً فما أن مضى أسبوع وبضعة أيام، حتى شوهدت لويز جولدمان وهي تغادر مسكنها ذات مساء إلى المطار. . كانت في تلك الليلة تبدو وكأنها فتاة أخرى تماماً ، تغير كل شيء فيها ، لم يكن هناك مكياج أو باروكة وضعتها فوق رأسها ولا شيء من هذا القبيل ، بل فقط . . . خلعت نظارتها الطبية وغيرت تصفيف شعرها وارتدت بنطلون جينز فوقه جاكيت جلدي سميك ، فبدت أصغر من سنها بعشر سنوات على الأقل !

ولقد قال ذلك الشاب ـ وهو واحد من الثلاثة الذين اجتمع بهم عادل مكي ـ الذي تبعها في تلك الليلة حتى رآها بعينيه وهي تدخل إلى طائرة شركة العال ، الإسرائيلية المتجهة إلى إسرائيل ، قال ضاحكاً فيما بعد : إن الهيئة التي خرجت عليه بها لويز جولدمان ، لم تكن تشبه أية صورة من تلك اللوحات الست التي تخيلها الفنان الألماني هانز . . . لكنه اعترف بعد قليل من المداعبة ، إنها بدت له في لحظة ، وكأنها أخذت من كل صورة من تلك التي رسمها هانز شيئاً ما ، ثم كونت من اللوحات الست شخصية أخرى لتصبح لتلك الفتاة التي رآها تغادر بيتها إلى المطار في بساطة من لا يخشى مراقبة على الإطلاق !

وهكذا ، تَيَقّن عادل مكي أن الإسرائيليين غافلون عنه تماماً ، وأن عليه أن يخطو خطوته التالية باطمئنان أكثر !

كان معنى سفر لويز جولدمان إلى إسرائيل أنها لن تلتقي بنبيل سالم بعد ذلك على الإطلاق ، فلقد أدت مهمتها على أكمل وجه ووجب أن يفترقا إلى الأبد . . . هذا هو القانون وهذا هو العرف وهذا هو التصرف الصحيح ، ثم ، إن هذا هو أسلوب المخابرات الإسرائيلية الذي بدا له عتيقاً غير متطور . . . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن عودة لويز إلى إسرائيل تعني عودتها إلى القاعدة كي تستعد لجولة جديدة مع ضحية جديدة أو عملية جديدة ، تماماً مثلما حدث بعد وجودها في فرنسا وفي إيطاليا وقبل أن تظهر في هامبورج بألمانيا الغربية . . . وكان معنى هذا أيضاً ، أن نبيل سالم قد انتقل الآن إلى مدينة من تلك المدن التي يستطيع أن يمارس فيها نشاطه ـ كان عادل مكي قد وضع عيونه في مطار القاهرة الدولي خشية أن يكون نبيل قد عاد إلى مصر ، لكن متابعته للأمر نفت تماماً عودته ! ـ وكانت تلك المدن بالقطع ، هي التي يكثر تجمع العرب فيها ، خاصة المصريين . . . وكانت هذه المدن معروفة في أوروبا تماماً . . . أشهرها بعد هامبورج كانت نابولي وجنوا في إيطاليا ، وأثينا وبيريه في اليونان . . . بل إن تقديره للموقف ، جعله يضع احتمالين لا ثالث لهما ، ولذلك ، فلقد راح يُحْكم البحث في نابولي وأثينا بالتحديد !

« كان عادل مكي في تلك السنوات ، واحداً من المصريين الذين ترددوا أكثر من مرة على أثينا عاصمة اليونان بالذات ، لكنه وحتى لا يشطح الخيال ببعض من تستهويهم الإستنتاجات ـ لم يكن ذلك الذي انتحل اسم « الريس زكريا » في المسلسل التلفزيوني « دموع في عيون وقحة » الذي اشتهر في العالم العربي باسم بطله « جمعة الشوان » !! .

وهكذا عاد عادل مكي إلى القاهرة كي يبدأ خطوته التالية ، وهي البحث عن الشاب المصري نبيل سالم ، الذي كان يتوقع ظهوره في نابولي أو أثينا ، كي يلعب دوراً لم يكن قد اتضحت له أبعاده بعد !!

* * *

في تلك الأيام كان نبيل سالم ـ ومنذ وصوله إلى نابولي ـ يحيا حياة لا علاقة لها بالواقع الذي عرفه من قبل . . . ضغطت عليه تلك المعاملة التي عومل بها

ضغطاً جعله يظن أنه يعيش كابوساً راح يتلهف كي يصحو منه ، كان يقضي يومه كله جالساً في تلك الغرفة العارية الأرض والجدران ، والتي أُلقي فيها . . . في انتظار أن يفتح عليه الباب مرة ، أية مرة !

لم يكن هناك من يحدثه أو يتحدث إليه ، لم يكن هناك من يلقي عليه تحية الصباح أو المساء ، لم يكن يعرف أين هو أو ماذا سوف يصنعون به . . . في صباح اليوم التالي لوصوله ، فتح باب الغرفة ـ أو الزنزانة كما أطلق هو نفسه عليها فيما بعد ـ عن عملاق شرس التقاطيع صخري الوجه ، ألقى بطبق فيه كسرة من خبز وقطعة من جبن على الأرض ، ثم وضع بجوارها إناء امتلأ نصفه بالمياه . . . أعلن نبيل عن رغبته في الذهاب إلى الحمام فصحبه الرجل ـ دون كلمة ـ إلى حمام صغير في صدر المكان بلا باب !! . . . وظل واقفاً أمامه جامداً حتى إذا انتهى صَحِبَهُ مرة أخرى إلى غرفته وأغلق الباب من جديد !

في المساء ظهر عملاق آخر كي يصنع نفس الشيء ، كسرة خبز وقطعة جبن وقليل من الماء !!

ولستة أيام متصلة لم يسمع نبيل سالم كلمة واحدة من حراسه رغم كل محاولاته وتوسلاته . . . حتى إذا كان الصباح السابع ، كان الغضب والهلع قد أخذ منه كل مأخذ وهو عائد من الحمام ، فما أن وصل إلى باب الغرفة حتى استدار نحو حارسه وهو يصرخ كمن فقد عقله : إنه يريد أن يرى أبو سليم أو ذلك السنيور جيوفاني ، وما شعر بعدها إلا بلكمة رهيبة ترتطم بفكه وتدفع جسده عبر الغرفة في عنف كي يرتطم بالحائط ويسقط فوق الأرض . . . وقبل أن يفيق أو ينتبه لما حدث ، كان الباب قد أغلق من جديد ، وصنع صوت المزلاج دوياً بعث الرعب في نفسه أكثر !

غير أن الشيء المؤكد ، أن تلك العزلة قد دفعت نبيل سالم طوال ذلك الأسبوع العصيب إلى التفكير . . . ولقد أدرك بوضوح ، ومنذ البداية ، إنه إن قُدّر له أن يخرج من محبسه هذا حياً ، فإن عليه الإمتثال لكل أمر يصدر له من أبي سليم . . . لكن الغريب في الأمر ، أنه قال فيما بعد وهو يحكي قصة تلك الأيام بالتفصيل ، إنه كان يشعر حقاً بالضيق ، بالخوف ، بالرعب ،

بالضياع . . . لكنه أيضاً كان يشعر ـ رغماً عنه ولدهشته البالغة ـ بسعادة خفية تغمره !!

وكان سر تلك السعادة الدفينة والخفية التي أدهشته ، أنه أدرك أنه يعمل مع منظمة قوية بحق ، منظمة لها فروع في دول شتى ، كما أن لها رجالاً في كل مكان ، وطقوس لا بد من اتباعها ، منظمة تستطيع في بساطة أن ترشو ضابط شرطة ألماني ، وأن تُهرب مطلوباً للعدالة ، وأن تجهز له جواز سفر في ساعات جد قليلة ، وأن تحمله إلى بعيد . . . أدرك نبيل سالم أن هذه المنظمة لو أنها أرادت التخلص منه أو قتله ، لما تجشمت عناء نقله إلى دولة أخرى ، بل تخلصت منه في هامبورج ببساطة شديدة . . . وكان المعنى الوحيد لتهريبه أن هناك أمل في معاودة التعاون معه ، وأنها ترى فيه عنصراً صالحاً بالرغم من أنه أضاع بحماقته ، مخدرات بمئات الألوف من الجنيهات . . . فمن تكون تلك المنظمة الخرافية القوة والقدرات سوى المافيا ؟!!

هكذا كان نبيل سالم يفكر ، وهكذا استراح لما وصل إليه ، فقبع في غرفته تلك العارية الأرض والجدران القارسة البرد ينتظر الخطوة التالية ، أصبح موقناً أنهم أبقوا عليه لأنهم يحتاجون إليه ، أو لأن أبا سليم قد شفع له عندهم !!

قال نبيل سالم يصف حالته أثناء وجوده في تلك الغرفة في قبو ذلك القصر الذي دخله في نابولي ذات ليلة . . . إنه راح يفكر ، ويسترجع الأحداث ، ويقارن ويحلل ويبحث عن معنى لكل ما مرَّ به . . . وكان يصل إلى نتائج أثبتت له الأيام أنها خاطئة ، لأنه ، فقط ، كان يسير في الاتجاه الآخر !!

. . . . . .

. . . . . .

في صبيحة اليوم التاسع ، فتح الباب وظهر فيه أبو سليم !

انتفض نبيل لرؤية الرجل الذي كان يمثل بالنسبة إليه طوق نجاته الوحيد مما هو فيه ، وظل أبو سليم في مكانه جامداً وهو ينظر إلى نبيل والشرر يتكاثر من عينيه ، كان واضحاً أن الغضب قد استبد به استبداداً لا يدع للحلم طريقاً

إليه . . . وبالرغم من أن نبيل كان قد وطّد نفسه على تقبل كل شيء ، إلاّ أنه لم يستطع أن يمنع الخوف من أن يجتاحه اجتياحاً . . . بعد ثوانٍ من الصمت نهض واقفاً لاستقبال الرجل الذي نظر خلفه نظرة سريعة فإذا الحارس يدلف إلى الغرفة كي يضع بجوار الباب مقعداً من الخشب . . . وضع الحارس المقعد ثم انصرف وأغلق الباب وارتفع صوت المزلاج حاداً فكأنه صوت مقصلة تهوي فوق عنق نبيل الذي استشعر خطراً لم يتوقعه ، فقال بصوت متوسل :

« شوف يا بو سليم ، أنا غلطت ومستعد أدفع ثمن غلطتي ! » .

قال أبو سليم وهو يخطو كي يجلس فوق المقعد متحفزاً :

« مستعد تدفع ربع مليون مارك يا نبيل ؟! » .

« مستعد لأي حاجة تقولها ! » .

« أي حاجة ؟! » .

« أنا بصراحة يا بو سليم ماكنتش فاهم ! » .

« ودلوقت ؟! » .

« فهمت » .

« فهمت إيه ؟! » .

ارتبك نبيل ، ابتلع لعابه ، أرتج عليه ، تلعثم وهو يقول :

« الـ . . الـ . . . المنظمة يعني !! » .

من بين أسنانه راح أبو سليم يقول :

« إنت عارف أنا تعبت قد إيه علشان أقنعهم بيك ؟! » .

« غلطة ومش حاتتكرر تاني !! » .

« قعدت تتحايل على فريدريك ، وتقول له إنك عاوز تعيش ! » .

« غلطة . . . صدقني إنها غلطة ! » .

« والفلوس ؟! » .

« حاعمل كل حاجة وأي حاجة علشان أسددها ! » .

« ولو ما سددتهاش ؟! » .

« أعمل في اللي يرضيك ! » .

« ما هو إنت لو ما سددتهاش ، أنا اللي لازم أسددها ! » .

« يا بو سليم . . . . . » .

ما كاد نبيل يهتف باسم الرجل حتى نهض هذا من مكانه مزمجراً وقد احتدمت ملامحه بغضب هائل :

« أنا اللي لازم أدفعهم يا نبيل وإلا إحنا الإثنين حانروح سوا في مشوار لحد الآخرة !! » .

« طب عاوزني أعمل إيه ؟! » .

قال نبيل هذا وهو يلتصق بالحائط متراجعاً أمام تقدم الرجل الذي كان ينتوي شراً :

« عاوزك تدفع لي ربع مليون مارك ألماني ثمن الشحنة اللي ضيعتها علشان حتة بنت لا راحت ولا جت !! » .

« يا بو سليم . . . . . » .

ولم يكمل نبيل جملته ، فلقد صعقته قذيفة رهيبة من قبضة فولاذية أدارت رأسه . . وفيما بين اليقظة والإغماء استولت الدهشة على نبيل وسؤال يتصارخ في رأسه ، من أين لأبي سليم بمثل هذه القوة الرهيبة . . . دارت رأسه وتهادى جسده فراح يقاوم السقوط بالإستناد إلى الحائط ، فعاجلته لكمة أخرى في بطنه أورثته سقماً انتشرت آلامه في صدره كأسياخ من نار !

« حاتجيب الربع مليون مارك منين ؟! » .

أراد نبيل أن يقول شيئاً لكنه لم يستطع ، كان يتلوى دائر الرأس مُضَيّع الحواس . . . من بعيد جاءه صوت الرجل يتساءل في غل :

« إيه اللي ما خلاكش تحط الشنطة في الخزينة ؟! » .

أراد أن يقول إن شيرلي هايمان حاصرته ولم يرد أن يكشف لها أمره فطاوعها مرغماً ، وجاءه على الفور صوت أبي سليم وكأنه استمع إلى خواطره :

« وخضعت لها ليه ؟! » .

هز رأسه نفياً ، أراد أن يقول إن الأمر لم يكن خضوعاً فجاءه الصراخ هامساً :

« وليه تخضع لها من الأساس ؟! » .

هوت صفعة على صدغه كادت تخلع رأسه وانبثقت الدماء من فمه فانتشرت رائحتها في خياشيمه فأراد أن يتوسل لكن أبو سليم عاد إلى الزمجرة :

« ومن امتى شيرلي هايمان بتروح معاك البيت ؟! » .

فتح فمه ورغبة رهيبة في التقيؤ تنتابه لكن الصراخ عاد :

« ولما انت بتاخدها معاك البيت ليه ماقلتليش ؟! » .

لم تطاوعه معدته فاعتصر المغص أمعاءه وسقط على ركبتيه وهو يتلوى !!

« طبعاً كل حاجة لازم أعرفها ، كل كبيرة وصغيرة ، كل تصرف وكل بني آدم بتشوفه وكل كلمة بتقولها وأي كلمة بتسمعها من ساعة ما تصحى لحد ما تنام ! » .

أخيراً وجد صوته . . . قال :

« حاضر . . . حاضر !! » .

وكانت كلمة « حاضر » هذه ، هي أول ما فاه به نبيل ، فعاد أبو سليم إلى مقعده !!

* * *

الفصل الخامس عشر

القيد الأخير !

لا بد لنا هنا ، من إلقاء نظرة ولو سريعة ، نستكشف بها كيف كان يفكر ضابط المخابرات الإسرائيلي ، الذي أطلق على نفسه اسم أبو سليم ، وبالتالي كيف كان يفكر جهاز المخابرات الإسرائيلي . . . حتى تستقيم الأمور ، وتتضح الخيوط ، كل الخيوط ، أمام من يريد أن يعرف كيف كانت العقلية الإسرائيلية تفكر وتتحرك في تلك الحقبة الخطيرة والمشحونة ، التي أعقبت هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وكيف كان الغرور الإسرائيلي وذلك الصلف الذي تسلحوا به ، سلاحاً استعمله الرجال ، وحاربوا به مع أسلحة كثيرة كلفتهم من الجهد والعرق الكثير !!

وإذا كان هذا النوع من النشاط الإنساني له قوانينه وقواعده التي لا تختلف في أصولها وجذورها من دولة إلى دولة ، أو من جهاز إلى آخر . . . إنما يأتي الاختلاف في التفاصيل التي تخضع ـ مع الظروف الموضوعية المحيطة بكل حالة ـ للتقدير الشخصي لضابط هذه الحالة . . . وقد لا يكون الاختلاف من جهاز إلى جهاز آخر فقط ، بل ربما كان بين ضابط وآخر في الجهاز الواحد . . . إن التصرف هنا ـ أو كما يطلقون عليه التكنيك ـ هو أقرب إلى بصمة الفنان منه إلى أي شيء آخر !

ولقد يخرج الباحث من هذه القضية ـ أو الحالة ـ بأن نظرة أبي سليم إلى نبيل سالم ، كانت قد تبلورت ـ في تلك الأسابيع الأخيرة التي سبقت سفره إلى إيطاليا ـ مؤكدة صلاحيته للعمل مع الموساد ، بل ـ ربما ـ استعداده الكامل للتعاون معه . . . كما أكدت ، أنه ، من وجهة نظر أبي سليم ، نجاح نبيل

سالم في العديد من الاختبارات التي وُضع تحتها . . . فهو قد احتفظ ـ مثلاً ـ بسر حقيبة المخدرات المزعومة ، وكان منضبط الحركة والتصرف فلم يقع في خطأ ولم يبح لشيرلي هايمان التي كانت قد استولت على عواطفه وحياته استيلاءً كاملاً ، بسره ، رغم محاولاتها المتعددة !

فإذا كانت خطة أبي سليم قد بنيت على وقوع نبيل ـ بالضرورة ـ في خطأ يجعله تحت السيطرة الكاملة له ، فلقد كان لا بد إذن من البحث عن هذا الخطأ الذي سوف يقوده إلى قيود لا يستطيع منها فكاكاً . . . وبالطبع ، لم يكن هناك من يستطيع دفعه إلى الشرك المنصوب ، سوى شيرلي هايمان . . . وهكذا ، فلقد راحت تلك الفتاة المدربة تخطو نحو مهمتها بحذر وحرص .

كانت تعرف بالقطع ـ في تلك الليلة التي حدث فيها ما حدث ـ أن الحقيبة هذه المرة مليئة فعلاً بالمخدرات ، وكانت تعرف كيف تضغط على نبيل حتى تدفعه إلى عدم الذهاب إلى محطة السكة الحديد لإيداع الحقيبة في الخزانة في الموعد المحدد . . . كان لا بد لها أن تنجح في مهمتها التي من أجلها جاءت إلى ألمانيا . . . وهكذا ، وضعت لويز جولدمان ـ أو شيرلي هايمان ـ نبيل في موقف من لا يستطيع الرفض . . . بل إنها عندما طلبت منه الذهاب ـ معه إلى البيت ـ شوقاً وحباً ورغبة !! ـ وعندما حاول هو التملص من الدعوة بحجة موعد مع صديق صاحت فيه ذات لحظة وفي نبرة تصرخ بالشك :

« لست أدري أي صديق هذا الذي تلقاه دائماً بعد انتهائك من كل جولة تخرج فيها مع بعض السائحات العجائز ؟! » .

كانت تُلَمّح بالغيرة ، لكن اللهجة ـ وربما نظرة سريعة إلى الحقيبة التي كان يحملها ـ كانت توحي بشكوك أبعد من هذا ، مما جعل نبيل سالم يرضخ لها محاولاً إرضائها !!

وقد يعنّ للبعض هنا أن يتساءل : إذا كان تجنيد نبيل أو إتمام السيطرة عليه من قِبَل المخابرات الإسرائيلية يعتمد على قدرة لويز جولدمان على التأثير على هذا الشاب التعس ، فماذا لو لم يخضع نبيل لها ولم يذهب معها إلى البيت ؟!

ولا بد لنا من الإنتباه إلى أن البدائل تبدو كثيرة ، بل كثيرة جداً . . . بل إننا نستطيع أن نجزم ، إنه من الضروري أن يخطر مثل هذا السؤال على ذهن ضابط المخابرات الإسرائيلي ، وأنه لا بد وأن يضع في اعتباره كل الإحتمالات . . . ولذلك ، فلا بد ـ مرة أخرى ! ـ وأن تكون البدائل قد وضعت بالفعل ، بحيث إذا فشلت خطة ما أو اسلوب معين ، انتقل الجميع فوراً إلى البديل الجاهز . . . وفي مثل هذه الحالة ، فإن الظن يذهب بنا إلى أن البديل الذي وضع ـ وهو بالضرورة يخضع لأسلوب الموساد في السيطرة على عملائها ـ كان جاهزاً للتنفيذ في نفس تلك الليلة ، وقبل أن يودع نبيل الحقيبة الثمينة في الخزانة ! . . . خاصة ، وأن نبيل سالم ـ كخامة صالحة ـ كان جاهزاً تماماً !!

وعلى سبيل المثال . . . فلو أن نبيل استطاع التخلص من شيرلي هايمان ، لما كان صعباً على أبي سليم ، وكان رجاله الذين مثلوا أدوار رجال الشرطة الألمانية جاهزين بالطبع ، أن يوقف سيارة بجوار نبيل وهو يسير في الطريق العام نحو محطة السكة الحديد ، وأن يهبط منها ، نفس الرجال الثلاثة الذين داهموا مسكن نبيل ، وأن يوقفوه طالبين منه اصطحابهم إلى السيارة !!

إن الأمر هنا ، رغم خطورته ، يبدو بسيطاً للغاية . . . ذلك أن نبيل بالقطع كان موقناً أنه يحمل حقيبة مليئة بالمخدرات ، ولو أن هذا حدث له ، لأصابه الإرتباك ـ مهما كانت قوة أعصابه ـ وفقد السيطرة على نفسه ولو لثوانٍ كانت كافية تماماً لأن يدفعه الرجال إلى السيارة دون أن يشعر أحد من المارة بشيء على الاطلاق . . . ثم ، لم يكن صعباً ، مع بعض التعديلات البسيطة ، أن يذهبوا به إلى مسكنه بحجة التفتيش ، ثم يكتمل السيناريو بحذافيره بعد ذلك !

. . . . . .

. . . . . .

كانت كلمة « حاضر » التي نطق بها نبيل سالم وهو فيما بين اليقظة والإغماء ، في تلك الغرفة العارية الأرض والجدران ، وبعد أن أهداه أبو سليم عدداً من اللكمات كان عنفها مفاجأة حقيقية له ، بمثابة توقيع نبيل على عقد يضمن لضابط المخابرات الإسرائيلي طاعة عمياء . . . وعلى ذلك ، فما أن فاه

نبيل بتلك الكلمة ، حتى أخرج أبو سليم من جيبه إيصالاً مكتوباً بلغة لم يفهمها نبيل ـ وإن كان قد رجح فيما بعد أنها الإيطالية ـ ثم دفع إليه ، مع الإيصال ، بقلم وهو يقول :

« خد . . . امضي لي على الوصل ده ! » .

كان نبيل لا زال يتلوى من الألم ، ويرتجف من الخوف . . . رفع رأسه هاتفاً :

« إيه ده يا بو سليم ؟! » .

« وصل بالربع مليون مارك ! » .

فغر نبيل فمه دهشة ورعباً ولم يفه بحرف . . . بل إنه ـ على حد قوله ـ أفاق تماماً من آثار الضرب أو الألم ، وعاد أبو سليم يقول في غلظة :

« ده الحل اللي قدرت أوصل له معاهم ، ومكانش فيه سكة ثانية غير . . . . . » .

قاطعه نبيل وهو يتناول القلم والورقة :

« خلاص . . . حاضر . . . حاضر !! » .

الغريب ، أن لهجة الرجل تغيرت فجأة وقبل أن يعيد الإيصال إلى جيبه ، لانت كلماته وهو يعاتب نبيل لأنه « قصّر رقبته » أمام المنظمة ووضعه في موقف لا يحسد عليه ، ولولاه ـ لولا أبو سليم ـ لكان مصير نبيل شيئاً آخر . . عاتبه ـ مثلاً ـ لأنه لم يذكر له أن شيرلي هايمان كانت تذهب معه إلى البيت !

« وهو أنا لازم أقول لك على خصوصياتي كمان يا بو سليم ؟! » .

« طبعاً ! . . . » .

بدت على نبيل الدهشة فأردف أبو سليم :

« اللي بيشتغل شغلة زي شغلتنا مش لازم تبقى له خصوصيات ! » .

صمت لثوان ثم استطرد :

« ده علشانك وعلشان مصلحتك وحمايتك ! » .

لزم نبيل الصمت فعاد الرجل يقول :

« كل حاجة في حياتك مهما كانت تافهة أو صغيرة لازم أعرفها ! » .

غير أن المشكلة التي شغلت نبيل لم تكن في هذا ، ذلك أنه كان الآن على استعداد كامل لأن يطيع الأوامر الصادرة إليه دون سؤال ، وكان شبح التهمة التي وجهت إليه في ألمانيا ، مضافاً إليها ذلك الإيصال الذي وقّعه منذ دقائق ، سيفاً مسلطاً على عنقه . . . كانت المشكلة في نوعية العمل الذي سوف يعهد إليه . . . وهو عندما سأل هذا السؤال لأبي سليم ، لم يجبه هذا ، بل سأله بدوره :

« إنت مش جمان ؟! » .

كان نبيل قد نسي الجوع والعطش ، ولم يعد مهماً بالنسبة إليه أن يأكل أو يشرب ، بل كان المهم أن يخرج من سجنه هذا وأن يستنشق هواء الحرية !

« يالله بينا ! » .

هكذا قال أبو سليم بعد أن أجابه نبيل بأنه لم يذق من الطعام طوال عشرة أيام سوى كسرة من خبز وقطعة من جبن !

« على فين ؟! » .

« الأول تخرج من هنا ، وبعدين يحلها ربنا !! » .

* * *

في أعقاب نكسة ١٩٦٧ ، شهدت دول أوروبا جحافل من الشباب المصري الذي خرج إلى الدنيا الواسعة بحثاً عن الذات في أعقاب هزيمة كان تأثيرها النفسي مدمراً بكل ما تحمل الكلمة من معنى . . . لكن الظاهرة التي لفتت الأنظار ، وكانت محل مناقشة وبحث لفترة ليست قصيرة ، هو ذلك الإقبال الغريب على شراء السيارات المستعملة من الخارج . . . وفي تلك السنوات شهدت اليونان وإيطاليا وفرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة ، أنماطاً بلا حصر من المصريين الباحثين عن سيارة يشترونها بثمن رخيص ، كما شهدت تلك الدول العديد من الشباب المصري الباحث عن عمل ، أي عمل . . . وكان طبيعياً أن

تتولد مع الظاهرة أنماط من البشر تستفيد منها وتروج لها ، فظهرت طائفة من السماسرة المصريين والمتمصرين والأجانب الذين عاشوا في مصر لسنوات ثم عادوا إلى بلادهم . . . وكان ملائماً لأصحاب الجراجات الهائلة التي تتكدس فيها السيارات ، أن يستعينوا بهؤلاء السماسرة الذين يستطيعون التفاهم مع المصريين ، خاصة في إيطاليا وألمانيا ، ذلك أنه كان معروفاً أن المصريين في الغالب يتقنون عدداً من اللغات الأجنبية ، الإنجليزية والفرنسية . . . وكما رحب أصحاب تلك الجراجات بالسماسرة ، رحب بهم المصريون الذين كانوا في حاجة إلى تفاهم واضح حول الثمن والجودة والشحن وما إلى ذلك من إجراءات كانوا في حاجة إلى من يعرف مسالكها ودروبها في دول لا يعرفون لغاتها !!

من هذه الطائفة من السماسرة ، ظهر اسم نبيل سالم ، الذي أصبح اسمه الآن : نبيل الجيزي ـ وهو الاسم المدون في جواز سفره المزور والذي أمده به أبو سليم قبل مغادرته ألمانيا ـ الذي ذاع صيته في مدينة نابولي الإيطالية . . . والتي كانت تمثل للمصريين واحدة من أفضل المدن لشراء السيارات . . . ففوق كثرة الجراجات أو المخازن التي تكدست فيها السيارات المستعملة ، فهي ميناء يستطيع من يشتري سيارة منها أن يشحنها على سفينة متجهة إلى الإسكندرية ، وأن يسافر معها على نفس السفينة أيضاً !!

في تلك الأيام كانت الفرصة مواتية للمخابرات الإسرائيلية كي تدس عملاءها في كل مكان ، ولقد شهدت مدن أوروبا في تلك السنوات نشاطاً محموماً يستهدف هؤلاء المصريين الذين كان البعض منهم يثرثر فيما يعلم وما لا يعلم ، وأصبح الواجب على رجال المخابرات المصرية ثقيلاً ومركباً . . . ففوق مطاردة عملاء إسرائيل ، كانت هناك محاولات لحجب المعلومات المتسربة إلى العدو عن طريق الثرثرة أو القنوط أو اليأس أو . . . أو . . . أو عشرات العوامل النفسية التي تولدت مع انفجار الهزيمة الرهيب !

غير أن ظهور نبيل سالم ـ الذي كان عادل مكي يتوقعه وينتظره في نفس الوقت ، ليس فقط من أجل نبيل ، وإنما أيضاً من أجل الكشف عن شبكة من

أخطر شبكات التجسس التي أنشأها الإسرائيليون ـ قد تأخر بعض الشيء ، وكان هذا ، من وجهة نظر عادل ، أمراً طبيعياً !

قال نبيل سالم فيما بعد وهو يقصّ ما حدث له في تلك الأيام ، إن أبا سليم راح يستخدم في حديثه معه بعد خروجه من سجنه هذا ، تلك الألفاظ الخالصة المصرية ، والتي تنبيء عن حنان دافق وودّ شديد . . . قال إنه عندما غادر باب ذلك القصر الصغير إلى الحديقة التي عبرها منذ عشرة أيام ، ظل لدقائق غير قادر على مواجهة ضوء النهار وأشعة الشمس بعد تلك الأيام التي قضاها في غرفة شبه مظلمة لمح في طريقه بعضاً من العمالقة الذين ذاق من أيديهم لكمات كمطارق الحديد . . . كانت في انتظارهما سيارة قادها أبو سليم بنفسه ، خرجا إلى طرقات حاول نبيل عبثاً بعد ذلك ، وعندما استقر به المقام وازدادت فيه الثقة ، أن يعرف أين هي وفي أي حي من أحياء نابولي دون جدوى . . . اخترقت السيارة شوارع المدينة ثم غادرتها إلى ضاحية تبعد عدداً لا بأس به من الكيلومترات حيث وصلت إلى بيت صغير يقوم في حضن جبل شاهق الارتفاع . . . كان الجو في إيطاليا بطبيعة الحال أكثر دفئاً من جو ألمانيا القارس . . . دلفا إلى البيت فاستقبلتهما سيدة تناهز الأربعين من العمر ، ممشوقة القوام حادة الحركة مثل شرطي يؤدي واجبه ، في وجهها مسحة من جمال غابر ، وفي عينيها نظرات نافذة ، ولقد صاح فيها أبو سليم فور دخوله وبالعربية :

« الحمام جاهز يا راشيل ؟! » .

انتبه نبيل وانتبهت حواسه جميعاً ، أحس بشكل غامض أن أبا سليم يريد منه أن ينتبه لشيء معين ، أوحى إليه اسم السيدة بفكرة راودت مخيلته من قبل لكنه لم يبقها أو يستبقها أو يفكر فيها ، هز كتفيه وقتها ومضى إلى حيث قادته لامبالاته إلى ما كان فيه الآن . . . رحبت السيدة راشيل بنبيل سالم ترحيباً حاراً تكسوه طبقة سميكة من جليد خفي ، راحت تتحدث بالعربية المغموسة في تلك اللكنة التي تميز بها يهود مصر على طول العصور . . . قالت إن كل شيء جاهز ، وطلبت من نبيل قبل أن يدخل الحمام أن يلقي بملابسه كلها في سلة

كانت هناك ، وإنه سوف يجد بديلاً عنها . . . ورغم أن الوقت كان صباحاً إلاّ أن أبا سليم صب لنفسه كأساً من زجاجة كانت موضوعة فوق مائدة في ركن من المكان ، رشف من الكأس رشفة ثم قال :

« ياالله يا بلبل خدلك حمام واحلق دقنك على الفطار ما يجهز ! » .

كان المكان بالتأكيد رائعاً، والبيت ذا طبيعة خاصة تضفي عليه سحراً من نوع خاص . . . وجد نبيل في الحمام كل ما كان يحلم به ، دمعت عيناه وهو يخطو إلى البانيو الذي امتلأ بمياه دافئة تعلوها طبقةناعمة من رغاوي الصابون المعطر . . . غاب في الحمام ساعة كاملة ، وخرج منه يرتدي ، فوق ملابسه الداخلية الجديدة ، روباً من الحرير دثره بحنان . . . كان أبو سليم الآن يحقق لنبيل سالم كل أحلامه بلا نقصان . . . جلسا إلى المائدة وكانت عامرة بالطعام والفاكهة والعصائر ، استأذنت راشيل لبعض أمرها وتركتهما معاً . . . حدثه أبو سليم عن حبه له الذي دفعه إلى بذل جهود جبارة من أجل حمايته . . . قال إن هذه المرة ، ومع هذه المنظمة ، لن تحتمل خطأً جديداً . . . بعد الإفطار ارتدى نبيل في غرفة قادته إليها راشيل ، بنطلوناً جديداً وقميصاً فاخراً وبلوفر من الصوف الإيطالي الفاخر ، انتقلا إلى شرفة تطل على حديقة صغيرة ويرتفع أمامها الجبل شامخاً ، راحا يدخنان ويحتسيان القهوة الإيطالية القوية . . . قال له أبو سليم إن أمامه الآن بضعة أيام يقضيها في إجازة . . . سأله عن عدد ما يملك من ماركات ألمانية ثم استبدلها له بليرات إيطالية . . . قال له إنه سيبقى في هذا البيت إلى أن يستقر الرأي في المنظمة حوله ويعثرون له على مسكن يتناسب مع عمله الجديد . . . ثم قال له إنه طوال إقامته في تلك الجنة المؤقتة ، سوف يجد عند راشيل كل ما يحتاج إليه ، فسأله نبيل في خبث محاولاً أن يستظرف :

« كل حاجة يا بو سليم ؟! » .

« شوف يا نبيل . . . أنا عاوزك ترتاح خالص ، عاوزك تنام وتنبسط ولا تفكرش في حاجة على الإطلاق لحد ما أرجع لك !! » .

« وحاترجع إمتى ؟! » .

« لما ترتاح !! » .

« وياترى أقدر أخرج ؟! » .

ابتسم أبو سليم علامة الرضا ، فلقد بدا السؤال وكأنه استجابة كاملة من نبيل . . . قال :

« تقدر تخرج بالليل بس ! » .

« إشمعنى بالليل يعني ؟! » .

لم يجب على سؤاله دائماً استطرد :

« ولا تروحش دلوقت الحتت الزحمة ولا اللي فيها مصريين أو عرب ! » .

« مش فاهم ! » .

« إنت نسيت إن الأنتربول بيدور علينا يا نبيل ؟! » .

في وجل سأله نبيل :

« الأنتربول ؟! » .

« تفتكر البوليس الألماني ممكن يسكت بعد ما يكتشف إننا هربنا منه ؟! » .

« طب والعمل ؟! » .

« سيب الموضوع ده عليّ ! » .

« لحد إمتى يا بو سليم ؟! » .

كان الذعر بادياً على نبيل بوضوح ، فأجاب الرجل :

« لحد المسائل ما تهدى شوية ونقدر نرتب الأمور هنا والدار تبقى أمان ! » .

همّ نبيل بالحديث لكن أبو سليم استطرد :

« وعلى ما تتعلم لك كام كلمة طلياني علشان لما تنزل الشغل ما تبقاش زي الأطرش في الزفة » .

« ومين اللي حايعلمني ؟! » .

« راشيل طبعاً ! » .

مضت لحظة صمت أردف بعدها أبو سليم :

« راشيل بتعرف ست لغات ! » .

« بس فيه حاجة يا بو سليم ! » .

« إيه هي ؟! » .

« إذا كان الأنتربول بيدور علينا ، تبقى المسألة ممكن توصل مصر ! » .

« ده مش ممكن . . . ده أكيد ! » .

هتف نبيل في فزع لم يخفَ على أبي سليم :

« طب والعمل إيه في الحكاية دي ؟! » .

« وهو إنت فين ومصر فين ؟! » .

« إفرض إني حبيت أنزل مصر في إجازة كام يوم ؟! » .

« وقتها يبقى يحلها ربنا ! » .

« إزاي ؟! » .

صعقته نظرة أبي سليم تلك المخيفة ، تراجع إلى داخله ، غمغم معتذراً وهو يتذكر رزمة الأوراق المالية التي دفعها أبو سليم للشرطي الألماني أمام عينيه . . . عاد يسأل متعثراً :

« طب يا ترى . . . . . » .

لكنه لم يكمل فاستحثه أبو سليم :

« عاوز تقول إيه ؟! » .

« أنا حاشتغل نفس الشغلانة ؟! » .

« لأ طبعاً ! » .

« أمال حاشتغل إيه ؟! » .

« لسه ما اعرفش هم اختاروا لك إيه ؟! » .

صمت نبيل وهو ينظر إلى أبي سليم في تساؤل وتوسل . . . وسرعان ما استجاب هذا لنظرته ، فلقد اعتدل في جلسته قائلاً :

« على العموم اطمئن ، أنا كل اللي أعرفه إنك خرجت من لعبة المخدرات دي نهائي ! » .

« ما هو أنا ممكن أغلط في الشغلانة دي كمان ! » .

« وتغلط ليه ؟! » .

« جلَّ من لا يخطيء يا بو سليم ! » .

« إذا سمعت كلامي مش ممكن تغلط ! » .

همَّ نبيل بالحديث لكن الرجل أردف :

« لو كنت سمعت كلامي والتزمت بالتعليمات وإنت في هامبورج ، مكانش حصل اللي حصل ! » .

بدا الرجل لنبيل على حق فيما يقول ، فغمغم :

« بس يا بو سليم . . . . . » .

« على العموم إحنا لسّه على البر ! » .

هكذا هتف أبو سليم مقاطعاً الشاب الذي كان يشعر بالتمزق يدمر كل كيانه ، اضطرب نبيل اضطراباً شديداً للهجة التهديد التي تحدث إليه بها الرجل ، هتف متسائلاً :

« يعني إيه الكلام ده بقى يا بو سليم ؟! » .

« يعني إذا ماكانش عاجبك . . . إنت حر ! » .

« برضه يعني إيه ؟! » .

« بين البايع والشاري يفتح الله ! » .

صرخ نبيل بصوت مبدد :

« وحاجيب لك الربع مليون مارك منين ؟! » .

« ده شغلك يا حبيبي مش شغلي ! » .

« طب أعرف بس أنا حاشتغل إيه ؟! » .

« المفروض إنك تشتغل أي حاجة ، وكل حاجة ! » .

« حتى ولو كانت حاجة ما اعرفهاش ؟! » .

« إذا كنت ماتعرفهاش حاعلمك !! » .

تبدد الحلم وتحولت الراحة إلى قلق حاد ، احتدم بينهما الحوار وكان أبو سليم كمن يلقي به في ماء ساخن ، ثم يخرجه منه كي يلقيه في محيط من الثلج ، فإذا هو ككرة من مطاط تتقاذفها أقدامٌ لا ترحم . . . لم يعد هناك ما يقال وقد انتصف النهار فغادره أبو سليم تاركاً إياه يضرب أخماساً في أسداس ، عادت راشيل من الداخل متفجرة بالحياة والأنوثة وكان وجهها مشرقاً وعيناها تلتمعان وفي يدها أوراق لعب راحت تفردها أمامها على مائدة صغيرة في أشكال منتظمة !

« إنتي بتشوفي البخت يا راشيل ؟! » .

هكذا سألها متوجساً لكنها ابتسمت وهي تجيب :

« لأ . . . دي لعبة ممكن تلعبها لوحدك ! » .

« اسمها إيه ؟! » .

« الصبر !! » .

كان لتلك الكلمة البسيطة مذاق شديد الحرارة . أحس بالاختناق فنهض إلى الباب ، ما إن فتحه حتى سألته راشيل :

« على فين ؟! » .

« حاتمشى في الجنينة شوية ! » .

« بس ماتبعدش عن البيت علشان ماتتوهش ! » .

رغم بساطة الكلمات إلا أنها كانت تحمل شحنة آمرة لم تخفَ على نبيل ، التفت نحوها فإذا عيناها وكأنهما فوهتان لمسدسين على استعداد للإنطلاق . . . خرج إلى حديقة البيت وراح يجول ببصره في المكان الذي يحميه الجبل من الخلف في شموخٍ أخّاذ . . . خطا إلى الطريق وسار وسط الأشجار والطبيعة

الخضراء ولم يكن هناك غيره ولم يصادف إنساناً . . . كان يشعر وكأن عقله قد توقف تماماً عن التفكير ، أحس أنه محاصر حصاراً محكماً ولا طريق أمامه سوى الطاعة أو السجن ، فماذا لو قبضت عليه الشرطة الإيطالية واكتشفوا أن جواز سفره مزور ، إن أبسط ما يمكن أن يفعلوه هو تسليمه للسفارة المصرية وهذه هي الفضيحة التي كان على استعداد لأن يدفع عمره بالكامل ثمناً لكيلا تحدث . . . لم تكن سامية فهمي قد غابت عن ذهنه طوال تلك الأيام التي مضت ، كان إذا ما تذكرها أدرك أنها كانت على حق في كل ما قالت وفعلت . . . إلا أن حالة مكثفة من الاكتئاب وضيق الصدر والغضب كانت تنتابه في تلك الأوقات . . . فلقد كان نجاحها يواجه فشله ، وقوتها تواجه ضعفه ، ووضوحها يواجه التوائه ، إخلاصها يواجه خيانته . . . كانت سامية تعرّيه أمام نفسه ، ضاق صدره بالسير فعاد إلى البيت كي تستقبله راشيل في ترحاب ، قدمت له كأساً وصبت لنفسها آخر وجلست قبالته وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة متلألئة . . . في صوت متكسر سألته :

« عاوز تتعشى إيه النهار ده ؟! » .

أدارت معه حديثاً عرف منه أنها ولدت في مصر وعاشت في الإسكندرية وتربت في حارة اليهود المتفرعة من شارع الميدان . . . لم تكن في حاجة إلى تورية ، بل ربما كانت متعمدة الحديث حول الموضوع بوضوح ، حكت له كيف كانت تعيش في أمان ورفضت الهجرة من مصر إلى أن جاء العساكر ـ هكذا كانوا يلقبون رجال الثورة ـ فأصبحت الحياة كابوساً لا يمكن احتماله .

« وسبتي مصر ؟! » .

« أول ما ادوني التأشيرة ! » .

« جيتي على إيطاليا ؟! » .

« قعدت فيها يومين ! » .

« وبعدين ؟! » .

« رحت إسرائيل طبعاً ! » .

« وسبتيها إمتى ؟! » .

« وأسيبها ليه ؟! » .

أسقط في يده . . . سألها :

« أمال إنتي هنا بتعملي إيه ؟! » .

« جايه تبع الشركة اللي باشتغل فيها ! » .

وأمسك نبيل عن الكلام ، أدرك أن لا جدوى من اللف والدوران ، وأن هذه السيدة الجالسة أمامه ألقت من الأضواء ما يكفي لكي يفهم ، خطرت له تلك الفكرة التي راودته ذات مرة فلم يبقها أو يستبقيها أو يفكر فيها ، عاد يخوض في الحديث معها حول أمور شتى مبتعداً قدر طاقته عن الموضوع !

مضى أسبوع لم يظهر فيه أبو سليم ولا مرة . . . غادر البيت عدة مرات في المساء وكان يعود كي يجدها في انتظاره ، علمته لعبة الصبر وكانا يقضيان الوقت في لعب الورق أو مشاهدة التليفزيون، وكانت دروس اللغة الإيطالية تتم في وقت منتظم لا يتقدم ولا يتأخر ولا يتأجل . . . خلقت تلك السيدة بينهما نوعاً من الألفة كان يهدهده في أحيان ، ثم يفيق منه على واقع فريد في مرارته . . . لم يكن ما تعلمه من الإيطالية كثيراً لكنه كان كافياً لأن يتفاهم به مع الناس . . . عندما عاد أبو سليم ذات صباح بعد غيبة أسبوع كامل ، بادره نبيل قائلاً :

« إنت فين يا بو سليم ؟! » .

« كنت بادور لك على شقة تسكن فيها ! » .

« ولقيت شقة ؟! » .

« طبعاً ! » .

« كويسة ؟! » .

« لأ !! » .

« ليه ؟! » .

رماه أبو سليم بنظرته تلك النارية ثم زمجر :

« تاني يا نبيل ؟! » .

تذكر نبيل ما قاله له في هامبورج من أنه يجب أن يعيش في مستوى العمل

الذي سيشغله حتى لا يرتاب فيه أحد فهتف :

« خلاص . فهمت . فهمت ! » .

« أنا مش عاوزك تفهم بس . . . أنا عاوزك تتعلم بقى ! » .

« حاضر . . . حاضر ! » .

نهض الرجل واقفاً وهو يقول :

« إذا كان ليك هدوم هنا خدها معاك ويالله بينا ! » .

وهكذا كان على نبيل سالم أن يغادر البيت بعد دقائق ، وأن يودع راشيل التي صافحته في برود من لم يره من قبل ولم يعرفه أبداً . . . وكان وهو يخطو خارج هذا البيت المنعزل ، يخطو خطوته الأولى نحو طريق محفوف بالمخاطر ، والخيانة . . . طريق جعل منه عدواً لأهله !!

* * *

الفصل السادس عشر

المواجهة !

تتميز ميناء نابولي بطابع خاص يعطي لحضارة الجنوب الإيطالي نكهة لا يمكن للإنسان أن يخطئها . . وفيما حول الميناء الكبير ـ حيث المدينة القديمة ـ تتكدس البيوت والمباني في ازدحام يجعل الشوارع مجرد شقوق بين الحيطان والجدران . . . في واحد من تلك الشقوق أو الأزقة ، بيت يتكون من ثلاثة طوابق ، كل طابق فيه مكون من ثلاث غرف وحمام يشترك فيه سكان الطابق جميعاً . . . في واحدة من تلك الغرف ، استقر نبيل سالم .

كان ـ وهو يركب السيارة إلى جوار أبي سليم بعد مغادرته لذلك البيت الهادىء ـ يفكر فيما آل إليه حاله . . . ساد الصمت بينهما لدقائق طالت ، فراح يضغط عليه حتى كانت لحظة سأل ، وكان متردداً :

« إحنا رايحين فين يا بو سليم ؟! » .

« مانا قلتلك إننا رايحين بيتك الجديد ! » .

ران الصمت مرة أخرى لدقائق لم تطل ، فلقد استطرد أبو سليم :

« ماتنساش إن اسمك دلوقت نبيل الجيزي ! » .

تململ نبيل في جلسته فلقد راحت الأسئلة تتزاحم في رأسه . . . نظر إليه الرجل بجانب عينه .

« ما لك يا نبيل ؟! » .

هتف نبيل في توسل :

« وإذا قابلت حد من المصريين اللي يعرفوني ! » .

« ودي فيها إيه ؟! » .

« فيها إنهم يعرفوني باسم نبيل سالم ! » .

« وماله ! » .

هتف نبيل في قلق :

« وحكاية نبيل الجيزي دي إيه ؟! » .

« ده الاسم اللي الطلاينة لازم يعرفوك بيه ، علشان الأنتربول لو سأل عن نبيل سالم مايلقاهوش ! » .

همَّ نبيل بالحديث لكن أبو سليم استطرد :

« ثم إن المصري اللي عارف إن اسمك نبيل سالم ، مش حايقول لك هات الباسبور بتاعك علشان أطمن على اسمك فيه ! » .

كان منطق الرجل قوياً فلزم نبيل الصمت ، وعاد أبو سليم إلى الحديث :

« وحتى إذا فرض وحد سمع من المصريين واحد طلياني بيقول لك سنيور جيزي ، لازم تفهمه ببساطة أن الغرب كله بينادي البني آدم باسم عيلته ، وانت عيلتك اسمها جيزي فعلاً ! » .

كان الحل مرضياً تماماً لنبيل ، فغمغم :

« ماتزعلش مني يا بو سليم لما أسأل ! » .

« بالعكس . . . أنا بافرح ! » .

رفع نبيل حاجبيه دهشة ، فابتسم أبو سليم موضحاً :

« لأنك كل ما تسأل حاتعرف ، وكل ما تعرف حاتتعلم ، وكل ما تتعلم حاتكسب ، وكل ما تكسب حاتسدد إللي عليك ، وأبقى أنا عملت اللي عليّ !! » .

قال هذا وأطلق ضحكة من ضحكاته المرحة تلك التي أسرت نبيل في بداية تعارفهما . . . ثم التفت إليه مداعباً إياه في مرح :

« وأنا عاوزك تكسب ألوفات يا بلبل ، عاوزك تكسب ـ على الأقل ـ ربع مليون مارك ألماني ! » .

مثل تلك اللحظات كانت تمزق نبيل تمزيقاً لا رحمة فيه ، فبقدر ما كانت سعادته غامرة إذا ما عامله أبو سليم تلك المعاملة الرقيقة . . . بقدر ما كان هدوءه ينقبض إذا ما ذكّره بذلك الدين الذي يقيده بقيد من فولاذ . . . ولقد استدار الآن في مقعده كي يواجه أبا سليم تماماً وهو يقول :

« ودلوقت . . . إيه المطلوب مني بالضبط ؟! » .

« ولا حاجة . . . إنت حاتنزل البلد ، وتلف وتشوف وتدرس . . . تدور على شغل يعني ! » .

« شغل زي إيه ؟! » .

« ده يتوقف عليك ! » .

زفر نبيل وقد تذكر ما قاله له أبو سليم في هامبورج ، قال :

« يعني المهم إن الناس تشوفني وأنا بادور على شغل . . . مش كده ؟!! » .

« عشرة على عشرة ! » .

« إلاّ قول لي يا بو سليم ، إنت مصري والاّ سوري ؟! » .

ضحك أبو سليم في مرح وقد لمعت عيناه ببريق غريب :

« وهي تفرق ؟! » .

« أيوه . . . في اللهجة ! » .

« تحب أكلمك مغربي ؟! » .

وتوقفت السيارة في أحد شوارع نابولي المحيطة بالميناء ، غادرها نبيل مع أبي سليم إلى مسكنه الجديد . . . ولكن ، بالرغم من امتعاضه من المسكن ، ذلك الامتعاض الذي لا بد وأن يكون أبو سليم قد انتبه إليه ولم يعره اهتماماً ، إلاّ أنه لم يعترض ولم يفه بحرف . . . عندما استقر بهما المقام في الغرفة ، وتسلم نبيل مفتاحها من مالك البيت الذي كان بحاراً مخضرماً اعتزل البحر وكان

هذا البيت هو كل ما يملك هو وزوجته النحيفة السليطة اللسان والتي لا تكف عن الشجار مع النزلاء أو الجيران أو زوجها أو حتى نفسها . . . عندما استقر بهما المقام في الغرفة سأل نبيل :

« وحاشوفك إمتى يا بو سليم ؟! » .

« ده يتوقف عليهم !! » .

نظر إليه نبيل نظرة تمزقها حيرة بلا حدود ، وخوف من مجهول كان يدهمه لحظة بعد لحظة دون أن يستطيع دفعه ، فما كان من أبي سليم إلاّ أن ابتسم مربتاً على كتفه وهو يقول :

« إنت متخيل إن اللي زيي واللي زيك بتبقى لهم كلمة في المنظمة ؟! » .

« يعني إيه ؟! » .

« مش عارف بصراحة يا نبيل . . . كل اللي أعرفه إنهم وافقوا على إنك تسيب بيت راشيل وتسكن لوحدك ! » .

« وبعدين ؟! » .

رماه أبو سليم بنظرة غاضبة وهو يقول :

« يظهر إنك مش عاوز تتعلم ! » .

أسقط في يد نبيل ، كان يشعر بمرارة لا توصف ، وإحساس رهيب بالدونية ، كان الآن بلا حول ولا طول ولا قدرة حتى على التفكير أو التصرف . . . أخرجه أبو سليم مما هو فيه قائلاً :

« على العموم حاول تتعرف على الحتة اللي انت ساكن فيها في الكام يوم اللي جايين ، وابعد بقدر الإمكان عن الأماكن اللي فيها مصريين أو عرب . . . اتفرج وادرس المنطقة لحد مانشوف هم عاوزين منك إيه بالضبط ! » .

كانت لهجة أبو سليم الآن ودودة مما دفع بالراحة إلى نفس نبيل بعض الشيء ، غادره الرجل فجلس في الغرفة وحده ، حاول النوم فلم يستطع ،

استشرف الجوع فعافت نفسه الطعام ، همَّ بالخروج فلم يجد لديه رغبة في الحركة ، فاستلقى على الفراش وراح يحملق في السقف خاوي الذهن والوجدان معاً !

... ...

... ...

ولقد مضت أيام ثلاثة لا يعرف نبيل كيف قضاها ، كان الخيط الوحيد الذي يربطه بالحياة هو أبو سليم الذي لم يكن يعرف له عنواناً أو رقم تليفون أو حتى اسم . . . فكر في الهرب على إحدى السفن المقلعة إلى الإسكندرية ثم طرد الفكرة من رأسه فوراً وهو يتذكر أن رجال الشرطة في الميناء سوف يكونون في انتظاره . . . فماذا لو اكتشفوا ـ مثلاً ـ أن جواز سفره مزوّر ، وهل يستطيع في مصر أن يخفي جواز سفره ؛ . . . ثم ، ماذا لو أنهم قبضوا عليه بناء على تبليغ الأنتربول ؟!

ثلاثة أيام مضت وهو يجول في شوارع المدينة وأزقتها وحواريها ، فإذا ما كان الصباح الرابع دق الباب ، وعندما فتح ، كان أبو سليم هناك !

« عندك هدوم كويسة ؟! » .

هكذا بادره الرجل دون أن يلقي عليه تحية الصباح ، كان بادي الهم مقطّب الجبين يبدو كمن خرج لتوه من معركة كانت مضنية !

« خير يا بو سليم . . . ما لك ؟! » .

أعاد عليه السؤال فقال :

« ما انت عارف إن الهدوم اللي عندي كلها جديدة ! » .

هَمّ أبو سليم بالحديث لكن نبيل وقد انقبض قلبه عاد يسأل في إلحاح :

« إيه الحكاية فهمني !! » .

لزم أبو سليم الصمت لثوانٍ وهو يحملق فيه ، خفق قلب نبيل عندما اقترب منه هذا :

« نبيل . . . أنا عاوزك المرة دي تطول رقبتي ! » .

« المرة دي ؟! » .

« أصل فيه مندوب من المنظمة وصل إمبارح بالليل ! » .

توهجت في ذهن نبيل فكرة العمل مع المافيا مرة أخرى ، هتف :

« ودي فيها إيه ؟! » .

صاح فيه أبو سليم مستنكراً :

« فيها إنه عاوز يشوفك دلوقت ! » .

« وإيه يعني ! » .

كان نبيل كاذباً وهو ينطق بهاتين الكلمتين اللتين تعنيان استعداده لمقابلة هذا المندوب مهما كانت أهميته . . . استشعر خوفاً غامضاً استولى عليه تماماً وهما يركبان السيارة التي راحت تقطع بهما طرقات المدينة ، التفت نبيل نحو أبي سليم متسائلاً :

« تفتكر المندوب ده حايكلمني في إيه ؟! » .

« في أي حاجة وفي كل حاجة ! » .

همَّ نبيل بالسؤال فأردف أبو سليم :

« خلي بالك ان مستقبلك كله متوقف على المقابلة دي ! » .

لاذ نبيل بالصمت واستغرق في أفكاره لكن الرجل اجتذبه منها قائلاً :

« أصل اللي زي دول يتعمل لهم ألف حساب ! » .

أحس نبيل أن أبا سليم ينكمش وينكمش حتى لكأنه سيصبح ـ أمام هذا الذي سوف يلتقي به بعد دقائق ـ قزماً بلا حول ولا طول .

« ولاحظ ان مالوش دعوة باللي حصل في هامبورج ! » .

« إزاي بقى ؟! » .

« لأنه عارفه بالتفصيل ومش حايتكلم فيه ! » .

« أمال حايكلمني في إيه ؟! » .

« الله أعلم . . . بس نصيحتي ليك إنك تجاوبه بصراحة على كل حاجة ! » .

« إنت بتخوفني ليه يا بو سليم ؟! » .

« أنا مش باخوفك . . . أنا بانبهك ! » .

قال أبو سليم هذا وهو يدور بالسيارة من الطريق إلى حيث كانت ساحة واسعة قد امتلأت بعدد هائل من السيارات المستعملة . . . كان نبيل قد مرّ بهذه الساحة أثناء تجواله بالمدينة ، وقف ذات مرة خلف سورها المصنوع من السلك يرقب عشرات السيارات من كل الأنواع والأشكال والموديلات ، طاف بخاطره أنه ذات يوم قد يأتي كي يشتري سيارة من هنا . . . اندفع أبو سليم بالسيارة نحو مبنى قائم في نهايتها البعيدة . . . كان المبنى مكون من دورين ، وكانت جدرانه كلها من الزجاج الذي يسمح لمن بالداخل أن يرى كل ما يدور في الساحة دون أن يستطيع من في الخارج أن يشاهد ما يجري خلف الزجاج !

توقفت السيارة أمام الباب الخلفي للمبنى فغادرا السيارة . . . كان ثمة باب زجاجي مغلق دفعه أبو سليم وخطا نحو الداخل وكانت خطوته تشي بأنه يعرف المكان معرفة جيدة . . . استقبلهما رجل إيطالي هائل الجسد كبير التقاطيع شديد الأناقة . . . ما أن رأى أبا سليم حتى اندفع لملاقاته في ترحاب . . . راحا يتحدثان بالإيطالية فاستطاع نبيل أن يميز من حديثهما بعض الكلمات ، وما لبث أبو سليم أن قال :

« إننا على موعد مع سنيور باروخ ! » .

قال نبيل سالم فيما بعد إنه فهم السؤال فهماً كاملاً فلقد لطمه اسم باروخ كقبضة تلقاها كي يفيق مما هو فيه . . . أومأ الإيطالي ـ وكان نبيل قد عرف من الحوار أن اسمه « اسكالكو » ـ نحو سُلَّمْ يؤدي إلى الطابق العلوي :

« إنه في انتظارك ! » .

تبع نبيل أبا سليم فصعدا السلم حتى وجد نفسه في ممر بطول المكان، سار في الممر حتى نهايته وتوقف أبو سليم عند باب دق عليه برفق شديد ، فجاءه من

الداخل صوت يصيح بالإيطالية :

« أدخل ! » .

فتح أبو سليم الباب وخطا نحو الداخل خطوة ثم توقف في أدب :

« صباح الخير سنيور باروخ ! » .

« كيف أنت يا أبا سليم ؟! » .

« إن سنيور جيزي معي في الخارج ! » .

قال أبو سليم هذا وهو يدفع الباب برفق كي يُغْلَق ويهبط الصمت والوحدة على نبيل مثل دثار ثقيل . . . تَسَمَّرَ في مكانه وجالت عيناه هنا وهناك فلم يطالع سوى جدران زجاجية وأبواب مغلقة ، مضت الدقائق ثقيلة حتى فتح الباب مرة أخرى وأطل منه أبو سليم :

« تعال يا نبيل ! » .

وجد هذا نفسه في غرفة واسعة ذات جدران زجاجية تكشف الساحة بكاملها . . . في صدر الغرفة كان ثمة مكتب أنيق يجلس خلفه رجل تطل من وجهه عينان حادتان يظللهما حاجبان كثيفان يصنعان فوق العينين مظلة تعطي للرجل مهابة . . . كان شعره رمادياً وعيناه زرقاوين بلون الفيروز ، وكانت لهما نظرة مخيفة .

خطا نبيل إلى الداخل متعثر الخطى فجاءه صوت الرجل يتحدث بالعربية :

« أدخل يا نبيل . . . تعال ! » .

ظل أبو سليم في مكانه لا يبرحه ، وتقدم نبيل من المكتب حتى توقف على بعد خطوتين وكان عقله يسبح في لا شيء وكأن الوجود تحول إلى عدم .

« أقعد يا نبيل ! » .

في الصوت نوع من الود الصارم أجلسه دون إرادة فوق مقعد وثير . . . وجاء صوت أبي سليم من خلف نبيل في أدب مبالغ فيه :

« أستأذن أنا ! » .

« مع السلامة يا بو سليم ! » .

سمع نبيل صوت الباب يفتح ثم يغلق لكنه لم يستطع الإلتفات فلقد شدته نظرات الرجل النافذة إلى جمجمته . . . مضت ثوانٍ بطول دهور جاء بعدها صوت الرجل :

« إن شاء الله تكون مبسوط في نابولي ! » .

« الحمد لله ! » .

أنكر نبيل صوته الذي خرج متهاوياً ضائعاً . . . زام الرجل معتدلاً في مقعده ثم قال :

« إنت مين ؟! » .

جاء السؤال مثل طعنة أفاق لها نبيل فرفع رأسه في دهشة هاتفاً :

« أنا ؟! » .

أومأ الرجل برأسه فأردف نبيل :

« أكيد أبو سليم قال لسيادتك ! » .

« أنا عاوز أعرف منك إنت ! » .

كان السؤال صارماً واللهجة صارمة والصوت جاف والعينان حادتا النظر فراح نبيل يحكي عن نفسه كل شيء ، كل شيء . . .

* * *

قال لي عادل مكي ضاحكاً : إن هذا الذي أطلقوا عليه اسم باروخ ، ربما كانت مكانته في الموساد أقل من أبي سليم . . . ورغم ذلك ، فإن هذا لا يمنع من أن يؤدي أبو سليم هذا المشهد أمام نبيل حتى يؤثر في نفسيته ذلك التأثير الذي يجعله يبوح بكل ما يمكن البوح به . . . إن خوفاً ، أو خلاصاً من الموقف كله !!

* * *

مضت عشر ساعات كاملة ونبيل سالم يحكي ويقص ويكتب ويبوح أمام هذا الرجل المسمى باروخ ، والذي كان يبدو وكأنه في نزهة يقضي فيها وقتاً ممتعاً !

في البداية قص نبيل كل شيء عن حياته ، عن أبيه وأمه وأقاربه وجيرانه وأصدقائه وزملائه في الدراسة والكليات التي تفرقوا عليها وما إذا كانوا قد تخرجوا وأين يعملون . . . و . . . و . . . وعند شخصيات بعينها كان الرجل يوقف نبيل ويطرح عليه من الأسئلة ما لا قبل له به أحياناً . . . وعلى سبيل المثال فلقد كان لنبيل ، وهو طالب في الثانوي ، صديق اسمه علي زين العابدين . . . ولقد التحق السيد زين العابدين هذا بالكلية الحربية وتخرج ضابطاً .

« في آني سلاح ؟! » .

ارتبك نبيل وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ ، ثم قال :

« مش عارف بالضبط . . . بس بيتهيألي إنه كان في المدرعات ! » .

« آخر مرة شفته إمتى ؟! » .

« قبل ما أسيب مصر بشوية ! » .

« كانت رتبته إيه ؟! » .

« كان لسه مترقي رائد ! » .

« أبوه بيشتغل إيه ؟! » .

وراحت الأسئلة تتوالى عليه وهو يجيب . . . وبطبيعة الحال ، فلقد كان لسامية فهمي نصيب الأسد فيما قصّه نبيل عن حياته في مصر ، سأله باروخ كيف التقيا وكيف تحابا وما هي ألوانها المفضلة وما هو فكرها السياسي ومن كان أبوها ومن هي أمها وأقاربها وأهلها وصديقاتها وأصدقائها وكيف التحقت بمجلة الفجر وما هو سر نجاحها وهل كفاءتها هي السبب أم أن شيئاً آخر وراء ذلك النجاح . . . و . . . وعشرات الأسئلة التي راح يمطره بها حتى جفّ حلق نبيل فطلب ـ على استحياء ـ كوباً من الماء . . . لكن السيد باروخ كان كريماً ، فبالرغم من أنه لم يدخن ولم يشرب شيئاً طوال تلك الساعات العشر ، إلاّ أنه سمح لنبيل بفنجان من القهوة الإيطالية المركزة . . . . واحتسى نبيل القهوة ودخن حتى نفدت سجائره فجاءه باروخ بصندوق آخر من السجاير . . . ولقد مضت أربع ساعات قصّ فيها نبيل كل شيء ، حتى إذا انتهى ، أشار باروخ إلى مائدة في الطرف الآخر من الغرفة :

« شايف الترابيزة اللي هناك دي ؟! » .

التفت نبيل نحو المائدة ثم عاد ببصره إلى الرجل الذي بدا له وكأنه قُدَّ مِنْ صخر .

« روح أقعد عليها واكتب كل اللي قلتهولي ! » .

كاد نبيل يهتف هلعاً غير أن نظرة من العينين الزرقاوين المظللتين بالحاجبين الكثيفين ألْجَمته . . . . نهض نبيل إلى المائدة فوجد ، عند مقعد معين ، ورقاً وقلماً وكان عليه أن يجلس على هذا المقعد بالذات .

« أكتب كل حاجة اتكلمنا فيها . . . وإذا كنت نسيت حاجة ، يبقى كويس لو افتكرتها وكتبتها ! » .

ولساعتين أخريين وبعض الساعة راح نبيل يكتب . . . حتى إذا انتهى قدم لباروخ الأوراق وقد امتلأت ، فراح هذا ، في تأنٍ يعيد قراءة كل ما كتبه نبيل . . . كي . . . كي تبدأ جولة جديدة من الأسئلة !

. . . . . .

. . . . . .

كان الظلام قد حلَّ عندما ساد الصمت بينهما ، وطوال ذلك اليوم المشهود في حياة نبيل سالم ، لم يكن وجه السيد باروخ ينبيء عن شيء ، حتى إذا انقضت ثوانٍ ، رفع باروخ سماعة تليفون كان موضوعاً إلى جواره ـ طوال اليوم لم يكن التليفون قد استُعْمِلَ إرسالاً أو استقبالاً ولم يدق جرسه مرة ـ ودقَّ ثلاثة أرقام ثم تحدث بصوت خافت لم يسمع منه نبيل ـ رغم قرب المسافة ـ كلمة واحدة . . . أعاد السماعة دون أن ينتظر رداً ، وما هي إلاَّ ثوان حتى سمع نبيل دقاً على الباب ، وما أن أذن باروخ للقادم بالدخول حتى فتح الباب وظهر فيه أبو سليم واقفاً في أدب شديد :

« تعال يا بو سليم ! » .

خطا أبو سليم نحو الداخل وهو يغلق الباب .

« يظهر إننا تعبنا الأخ نبيل النهار ده حبتين ! » .

« أوامرك يا سنيور باروخ ! » .

هز باروخ رأسه وهو يومىء لنبيل دون كلمة ، فنهض نبيل من مكانه ، وأوسع له أبو سليم طريقاً نحو الباب . . . وكان نبيل وهو يغادر المكان يشعر وكأنه يسبح في الهواء ، حتى إذا استقر به المقام إلى جوار أبي سليم في السيارة صاح :

« إيه الحكاية دي يا بو سليم ؟! » .

« حكاية إيه ؟! » .

« كل اللي بيحصل ده . . . أنا عاوز أعرف أنا رايح فين بالضبط ! » .

« طب مش ناكل لقمة الأول ؟! » .

كان نبيل متعباً مرهقاً مكدوداً جائعاً تتلاطم الأفكار في رأسه كموج صاخب . . . ومنذ أن سمع في الصباح اسم باروخ استقرت مخاوفه وأيقن أنه كان على حق فيما ذهب إليه تفكيره منذ أن التقى بالإسرائيلية راشيل . . . أحس أن أبا سليم لن يشفي غليله ولن يجيبه على ما يريد من أسئلة ، أثناء حديثه مع باروخ تذكر ـ لسبب لا يدريه ـ شيرلي هايمان تلك التي ملكت عليه فؤاده ، وتذكر أنها يهودية وأنه وعدها بألا يحارب قومها في إسرائيل . . . كانت السيارة الآن تخترق شوارع نابولي والأضواء تخايل عينيه ، استسلم في مقعده وتاهت أفكاره . . . في أطراف مدينة نابولي تتناثر بعض المحلات التي تخصصت في تقديم أنواع من الأحياء المائية والأسماك يسيل لها لعاب الكثيرون . . . أمام واحد من هذه المحلات خافتة الضوء منعزلاً توقفت بهما السيارة . . . قادهما الجرسون إلى مائدة منعزلة بجوار نافذة تطل على البحر مباشرة . . . كان المكان ساحراً والموسيقى خافتة ، وأبو سليم يلقي للجرسون بأوامره ، ثم في استعلاء مَنْ وُلِدَ وفي فمه ملعقة من ذهب جاءت زجاجة من نبيذ فاخر فأمدت الخمر نبيل بقليل من القوة والشجاعة فعادت أفكاره مرة أخرى إلى ما كان يشغل باله . . . ولا بد أن أبا سليم كان في انتظار هذا فلقد استقبل الأسئلة ـ بعكس ما انتظر نبيل في رحابة صدر وبساطة جعلت نبيل يعيش في دوامة من الذهول لم يفق منها إلا

وهو يخطو إلى دائرة الخيانة طواعية . . . في البداية قال نبيل في إصرار من يبغي حسم الموقف :

« قول لي يا بو سليم بالضبط إنت واخدني على فين ؟! » .

« قول لي إنت عاوز تعرف إيه بالضبط ؟! » .

« في الأول كان فيه راشيل ! » .

« ودي فيها إيه ؟! » .

« راشيل إسرائيلية ! » .

رفع أبو سليم حاجبيه دهشة فأردف نبيل :

« هي اللي قالت لي كده ! » .

« برضه ودي فيها إيه ؟! » .

« فيها إن بعد راشيل جه باروخ ! » .

« ما تخش في الموضوع يا نبيل ! » .

« الحكاية دي لها علاقة بإسرائيل ؟! » .

ضحك أبو سليم ضحكة خفيفة وهو يرشف من كأسه رشفة ثم يعيده إلى المائدة في رفق قائلاً :

« هي أولاً لها علاقة بالربع مليون مارك إللي انت السبب في ضياعهم ! » .

« بس أنا من حقي إني أعرف ! » .

« ومن حق المنظمة إنك ترجع لها فلوسها ! » .

هَمّ نبيل بالحديث لكن أبو سليم أردف :

« في نفس الوقت اللي انت لازم تعيش فيه عيشة محترمة ! » .

لزم نبيل الصمت فاستطرد أبوسليم :

« المنظمة لقت إن أنسب طريق علشان تسدد اللي عليك وتعيش في نفس الوقت ، إنك تشتغل لك كام شهر مع المخابرات الإسرائيلية ! » .

دق قلب نبيل في عنف ، وجاء الجرسون بطبق شهي من الأحياء المائية هبط به إلى المائدة في رشاقة يسيل لها لعاب الجائع ، قبل أن يمضي أصدر أبو سليم بعضاً من الأوامر انحنى لها الجرسون وهو ينصرف مسرعاً . . . مَدّ أبو سليم يده إلى الطبق وهو يقول :

« دوق ده ولا تقوليش الجندوفلي بتاع إسكندرية ! » .

ظل نبيل صامتاً جامداً دون حركة . رفع أبو سليم له وجهاً باسماً :

« إنت مش جعان والاّ إيه يا نبيل ؟! » .

« أنا عاوز أعرف إيه الحكاية بالضبط ! » .

« على العموم إنت لك حرية الاختيار ! » .

مال نبيل نحوه قائلاً في عنف :

« ما تقوليش حرية الاختيار يا بو سليم وإنت عارف كل حاجة ! » .

« إذا ما كانش عاجبك العرض ، أرفض . . . وما على الرسول إلاّ البلاغ ! » .

كان في صوت أبي سليم نغمة تهديد لم تخف على أذن نبيل فامتدت يده إلى الطبق وقد ركن إلى الصمت فلم يكن هناك ما يمكن أن يقال . . . ذات لحظة سأله أبو سليم باسماً :

« خايف ؟! » .

« طبعاً . . . مش فيه احتمال إن حد من مصر يعرف ؟! » .

« يعرف إيه ؟! » .

« يعرف إني باشتغل مع المخابرات الإسرائيلية !! » .

أطلق أبو سليم ضحكة جلجلت في المكان حتى التفت بعض الرواد نحوهم ، كانت إجابة نبيل تعني - بوضوح - موافقته على العرض . . . لكن هذا لم يمنع الرجل من مواصلة الحوار :

« مين اللي يعرف يا نبيل ؟! »

« يعني مفيش احتمال . . . . . » .

قاطعه أبو سليم في حسم :

« ولا واحد في المليون ! » .

« إنت متأكد يا بو سليم ؟! » .

« إنت نسيت اللي حصل يوم ٥ يونيو إللي فات ؟! » .

وصمت نبيل . . . عادت إليه ذكرى نكسة يونيو وكانت ألمانيا كلها تتحدث عن الهزيمة . . . عادت إليه ذكرى تلك الصور المفزعة والمخزية التي نشرتها الصحف وبثها التلفزيون . . . أفاق من سهومه على صوت أبي سليم يقول :

« كل ده كان شغل المخابرات الإسرائيلية ! » .

سادت بعد ذلك فترة صمت وضع فيها الجرسون مزيداً من الأطباق الشهية ، راح نبيل يلتقط من الأطباق ما يسد به جوعه المتزايد . . . غمغم أبو سليم ذات لحظة :

« على العموم كل شيء بثمنه ! » .

لم يرد نبيل ، كان غارقاً في أفكاره . . . حتى إذا انتهيا من العشاء قال أبو سليم :

« من بكرة تنزل تدور على شغل ، وتسأل ، وتقعد مع الناس وتتعرف عليهم ! » .

« والمصريين . . . والعرب ؟! » .

« دلوقت تقدر تقابلهم وتقعد معاهم بشرط ! » .

« إيه هو ؟! » .

« إنك تشتري ولا تبعش . . . تسمع ولا تتكلمش ! » .

كان أبو سليم الآن قد بدأ مرحلة أخرى من مراحل التدريب . . . وعندما غادر نبيل سالم السيارة بالقرب من بيته ، وقف في الشارع طويلاً يرقب ما حوله . . . كان راغباً عن العودة إلى البيت ، ولقد قال فيما بعد : إنه لم يكن يريد أن يواجه نفسه !!!

* * *

الفصل السابع عشر

المعركة تبدأ !

لم يستطع نبيل سالم في تلك الليلة ـ التي واجهه فيها أبو سليم بوضوح ـ أن ينام إلا لماماً . . . لم يكن يدري إلى أين يقوده ذلك الطريق الذي خطا فيه باختياره ، وكان موقناً من أن الخطوة التالية ، مع أول صباح يأتي ، ستكون نهاية لحياة ، وبداية لحياة أخرى تماماً . . . راح يتقلب في فراشه محاولاً النوم دون جدوى ، غفت عيناه قليلاً لكنه استيقظ إثر كابوس رأى نفسه فيه يهوي من حالق ، وكان جسده يتفصد عرقاً . .

عندما أطل من نافذة غرفته ووجد الحياة تدب في الشوارع لم يستطع البقاء في الغرفة فغادرها وألقى بنفسه إلى الطرقات يسير فيها على غير هدى . . . التقى أثناء تجواله ببعض المصريين هنا وهناك . . . كان منهم من يبحث عن عمل ومنهم من يبغي شراء سيارة ومنهم من كان يكدس البضائع من كل لون وصنف ، لم يكن نبيل موجوداً في مصر عندما استشرت فيها تجارة الشنطة . . . في أحد المقاهي ـ وكان الوقت ظهراً ـ استمع إلى مجموعة من المصريين كانوا يناقشون أسعار البضائع وأسعار السيارات وقيمة الشحن والجمارك وما إلى ذلك . . . عندما مرَّ بهم نظروا إليه في ترحيب حذر ، ألقى عليهم بالتحية فردوها في اقتضاب وكأنهم يخشون انضمامه إليهم . . . انتحى جانباً واستغرق فيما كان مقدماً عليه ثم أفاق على تحيتهم يلقونها عليه منصرفين . تناول غذاءه في أحد المطاعم الرخيصة ، ثم فكر في العودة إلى غرفته لكنه تراجع خوفاً من الإنفراد بنفسه . . . في المساء قادته قدماه إلى واحدة من تلك المقاهي التي تقدم مع الوجبات السريعة مشروبات خفيفة . . . كان يشعر بالوحدة والغربة

وفي قلبه حزن غامر ، اختار مائدة منزوية جلس إليها . . . ما إن استقر مكانه حتى أحس وكأن هناك من ينظر إليه ، التفت يميناً فطالعه وجه شاب كان يلتهم فطيرة إيطالية « بيتسا » ويحتسي فنجاناً من القهوة وكان يبتسم . . . قبل أن يصرف عنه عينيه هتف الشاب بالعربية :

« مساء الخير ! » .

استجاب نبيل لابتسامة الشاب وقد داخلته سعادة غريبة . . . ها هو مصري يلقي عليه التحية فهل يؤنس هذا الشاب وحدته ؟!

« مصري ؟! » .

هكذا سأله الشاب فما أن جاءه الرد من نبيل حتى حمل طبقه وفنجانه وانتقل إلى مائدته مقدماً نفسه :

« شريف بكري ! » .

جرى الحديث بينهما كما يجري بين إثنين من أبناء وطن واحد اغتربا بعيداً . . . كان شريف بكري من هذا النوع من الشبان الذي يقتحم الدنيا بمرح ويخوض الحياة باسماً ويتحدث عن الوطن ـ رغم هزيمته ـ بإكبار ويبدو كعصفور ينطلق في الآفاق وهو يعلم يقيناً أنه عائد ذات يوم إلى عشه . . . قال شريف بكري لنبيل سالم إن له في نابولي حوالي شهرين ، وإنه عمل جرسوناً في مطعم وموظفاً في شركة لسيارات التاكسي كما عمل مع متعهد سفن في الميناء كان يتعامل مع العديد من السفن المصرية والعربية .

« وإيه اللي كان بيخليك تسيب الشغل ! » .

« علشان أشتغل شغلانة تانية وأستفيد منها ! » .

هكذا قال شريف ضاحكاً في مرح . . . فسأله نبيل ساخراً :

« وحاتفضل تستفيد لحد إمتى ؟! » .

« لحد ما أحوش ثمن عربية كويسة أرجع بيها مصر ! » .

كان منطق الشاب سوياً إلى درجة آلمت نبيل . . . وبالرغم من هذا فلقد اندمج معه في الحديث والنقاش في محاولة مستميتة لنسيان تلك الزوابع التي

كانت تعصف براسه . . . قص على شريف قصة ملفقة كان أبو سليم قد لقنه إياها عن جولاته التي بدأت في فينيسيا وانتقلت به إلى اليونان ثم عودته إلى روما ثم صعوده إلى هامبورج ثم رحيله إلى لوفورنو وسفره إلى نابولي التي وصل إليها منذ أيام لعله يجد فيها حظاً أوفر من حظه في جولته تلك التي استمرت قرابة عامين . . . وكان شريف بكري يستمع إليه بانتباه شديد ، حتى إذا انتهى صاح به :

« طب ما ترجع مصر يا أخي ! » .

نظر إليه نبيل نظرة استنكار فكيف يعود إلى مصر خالي الوفاض وكأنه يخرج منها ولم يغترب لعامين كاملين ؟!

« لو إنك بذلت الجهد ده كله في مصر . . . كان زمانك بقيت حاجة تانية ! » .

الغريب في الأمر ، إن نبيل سالم لم يكن يعرف وهو يجوب مع هذا الشاب الذي أطلق على نفسه اسم شريف بكري ـ بعد أن غادرا المقهى ـ تلك الشوارع المحيطة بالميناء والقريبة منها والتي لا تنام بالليل أو النهار . . . إنه إنما جاء إلى نابولي خصيصاً كي يكون في انتظاره !

كان شريف بكري واحداً من رجال عادل مكي . . . وكانت كل كلمة ذكرها لنبيل سالم عن تلك الأعمال التي التحق بها صحيحة تماماً . . . كان شهران قد مضيا عليه الآن بالفعل وهو في تلك المدينة الصاخبة ، وكان جواز سفره يقول هذا بخاتم الجمهورية الإيطالية . . . وكانت الخطة الموضوعة قد رسمت له طريقاً يجعله ينتقل من عمل إلى آخر ومن مكان إلى مكان حتى إذا ما عاد إلى واحد من تلك الأمكنة لا تثير عودته أي نوع من أنواع التساؤلات !

« . . . . . عندما قلت لعادل مكي إن المصادفة في هذا الحقل تلعب أيضاً دورها المؤثر ، نظر إليَّ في دهشة من لم يفهم مقصدي . . . حتى إذا ما ذكرته أن لقاء نبيل سالم في ذلك المقهى وفي هذا الوقت من الليل بشريف بكري كان مصادفة بحتة . . . قال إن المصادفة هنا ـ إذا كنت مصمماً على استعمال الكلمة ـ من الممكن أن يطلق عليها اسم المصادفة المخططة . . . فلولا الخطة التي وضعت لشريف

بكري ، لما وقعت المصادفة أصلاً !! » .

وافترق الشابان في ساعة متأخرة من الليل ، كل منهما يبدو سعيداً بلقاء صاحبه . . . وكان لا بد ـ والأمر كذلك ـ أن يتواعدا في مساء اليوم التالي ، في نفس المقهى الذي التقيا فيه !!

* * *

كانت الساعة قد جاوزت الثالثة صباحاً عندما ودَّع نبيل صديقه الجديد هذا . . . وهو عندما فتح باب غرفته ، لم يكن يفكر في شيء إلاَّ في النوم لبضع ساعات تعوضه عن يومه الشاق ، غير أنه ما أن أضاء النور حتى انتفض مرتداً إلى الخلف . . . وجد أبا سليم يجلس هناك ، على المقعد الوحيد في الغرفة !!

لم تكن المفاجأة سارة جداً بالنسبة لنبيل سالم ، إلاَّ أنه تقبلها ببساطة بالرغم من أن الوجه الذي كان يطالعه الآن هو ذلك الوجه المقيت لهذا الرجل الذي استطاع أن يسيطر على مقدراته وحياته سيطرة كاملة . . . لم يعد يعنيه أن يسأل كيف دخل أبو سليم الغرفة وكيف حصل على المفتاح فلقد أصبحت مثل هذه الأسئلة الآن ساذجة ولا تنبيء إلا عن غفلة . . . رحب بالرجل متصنعاً بشاشة اضطر لإظهارها مجاملة . . . ما لبث أبو سليم أن سأله :

« عملت إيه النهار ده ؟! » .

وهكذا أدرك نبيل سالم أن عليه أن يقص ما حدث في يومه بالتفصيل فراح يحكي متحرياً دقة أجهدت عقله . . . حتى إذا انتهى نبيل بوداعه لشريف بكري سأله الرجل :

« عرفت كان بيشتغل إيه في مصر ؟! » .

« أنا فهمت إنه موظف ! » .

« فهمت والاَّ عرفت يا نبيل ؟! » .

« في الحقيقة ما سألتوش إنما . . . . . » .

قاطعه أبو سليم :

« ليه ؟! » .

« مكانش فيه مناسبة ! » .

« وما خلقتش المناسبة ليه ؟! » .

كان صوت الرجل صارماً وكانت نبرته إيذاناً بأن شيئاً جديداً سوف يدخل حياة نبيل الذي هتف محتجاً :

« يعني أقعده قدامي وأحقق معاه يا بو سليم ؟! » .

في برود جاءه الرد :

« إنت مش لازم تسأله خالص ، إنت تخليه هو اللي يقول لك على كل اللي إنت عاوز تعرفه ! » .

« إزاي بقى ؟! » .

« أنا أقول لك ! » .

وتلقى نبيل في تلك الليلة أول درس في علم « الإثارة » ، وهو العلم الذي يدفعك فيه محدثك ، بوضعك في حالة نفسية معينة ، إلى أن تخبره عما يريد أن يعرفه عنك أو منك دون أن يوجه إليك سؤالاً حول الموضوع الذي يريد معرفته منك !

وفي حقيقة الأمر ، وربما سبقاً للأحداث ، فلقد أثبتت الأيام أن نبيل كان تلميذاً مجتهداً لضابط المخابرات الإسرائيلي هذا . . . فلقد استوعب الدرس تماماً ، وفيما تلا ذلك اليوم من أيام وأسابيع وشهور ، كانت براعته في استخدام قواعد هذا العلم قد وصلت إلى حد الإتقان !

عندما همَّ أبو سليم بالإنصراف كانت الساعة قد شارفت على السادسة صباحاً ، فقال وهو ينهض من مكانه :

« ما تنساش تعرف بكره من شريف بكري هو كان بيشتغل هنا فين ؟! » .

« مانا قلت لك ! » .

« نابولي فيها كذا ألف مطعم ، وكذا شركة تاكسي ، والمتعهدين في الميناء على قفا من يشيل ! . . . » .

صمت نبيل ولم يرد فأردف الرجل :

« ومش صعب طبعاً إنك تعرف هو نازل فين هنا ! » .

هزَّ نبيل رأسه إيجاباً ، كان راغباً في النوم إلى حد كاد يدفعه لأن يطلب من أبي سليم الانصراف ، ولقد خطا أبو سليم بالفعل نحو الباب مطرقاً ، لكنه ما لبث أن استدار نحو نبيل قائلاً :

« وما تنساش قبل ما تنام تكتب لي كل اللي إنت حكتهولي ده . . . وإذا كنت نسيت حاجة حاول تفتكرها !! » .

فغر نبيل فمه في دهشة وهو يقفز نحو أبي سليم ، كانت هذه الجملة هي نفس الجملة التي سمعها من الخواجه باروخ . . . تكاد تكون هي هي بألفاظها وحروفها وحتى النبرة التي قيلت بها . . . هتف مستنكراً وهو ينظر في ساعة يده :

« قبل ما أنام إيه يا بو سليم دي الساعة . . . . . » .

قاطعه هذا في حزم :

« علشان ما تنساش حاجة ! » .

أراد نبيل مواصلة الاحتجاج لكن أبو سليم وضع يده على مقبض الباب مردفاً :

« أنا حاعدي عليك الساعة تسعة علشان أخد اللي انت كتبته ! » .

قال هذا ثم غادر المسكن دون أن يعطي نبيل فرصة لأن يتفوه بكلمة !

* * *

في نفس تلك اللحظات ، كان الشاب المصري الذي أُعطي اسم « شريف بكري » منكباً على كتابة برقية شفرية طويلة ، يقص فيها قصة لقائه بنبيل سالم الذي اختار لنفسه في نابولي اسم نبيل الجيزي . . . ورغم أنه كان متعباً منهكاً . . . إلاّ أنه كان مصمماً على إرسال البرقية بأسرع ما يمكن ، حتى يجدها عادل مكي فوق مكتبه ، أول شيء في الصباح !

كانت المعركة قد بدأت !!

* * *

في التاسعة ، أوشك نبيل على الانتهاء مما كتب عندما سمع على الباب دقاً رفيقاً ، نهض إلى الباب وفتحه كي يستقبل أبي سليم الذي واجهه في بشاشة من نال قسطاً وافراً من نوم عميق ، ابتسم في مرارة وهو يرحب بالرجل عائداً إلى المائدة كي ينتهي من الكتابة ، غمغم ساخراً وهو يمسك بالقلم :

« إشمعنى دلوقت اللي خبطت على الباب يا بو سليم ؟! » .

« علشان إنت موجود ! » .

كان الرد جارحاً ، وكان وقحاً ، فالتفت نبيل نحوه في تساؤل ، وتجاهل الرجل نظراته وهو يتخذ مجلسه على حافة الفراش الذي لم يمسه نبيل بطبيعة الحال . . . قال وكأنه يحاور أفكاراً تجول في رأسه :

« أصل شغلتنا دي يا نبيل ، مش لازم تسيب فيها حاجة للصدفة ! » .

أنهى نبيل بضعة أسطر كانت باقية ثم قدم الأوراق للرجل الذي راح يقرأ الأوراق على مهل . . . ما أن انتهى حتى سأله نبيل مستفزاً :

« دلوقت أنا عاوز أعرف أنا حاشتغل إيه بالضبط ؟! » .

هتف أبو سليم وكأنه يزف إليه بشرى :

« لقينا لك شغلانة هايله ! » .

« أنا مش باتكلم عن الشغل اللي في البلد هنا، أنا باتكلم عن الشغل مع المخابرات الإسرائيلية ! » .

« ماله ؟! » .

« أنا عاوز أعرف أنا حاشتغل معاهم إيه ؟! » .

« ما انت اشتغلت آهو !! » .

قال أبو سليم هذا وهو يلوح مبتسماً بالأوراق في يده . . . فغر نبيل فمه دهشة هاتفاً دون وعي :

« هو ده الشغل اللي انتوا عاوزينه ؟! » .

تفوه نبيل بالسؤال عفواً مما جعل وجه أبو سليم يشرق بابتسامة بدت لنبيل شديدة الغموض . . . كان معنى ما قاله نبيل إنه أسقط كل الأقنعة وبدأ يتعامل مع أبي سليم لا على أنه سوري بل إسرائيلي . . . ساد الصمت لثوانٍ وكان نبيل هو الآخر قد انتبه إلى ما بدر منه لكنه غمغم متسائلاً :

« أقدر أعرف إنت بتبتسم كده ليه يا بو سليم ؟! » .

قال أبو سليم في نبرة مؤثرة :

« إنت ممكن تتصور إني أشغلك شغلانة فيها خطر عليك ؟! » .

في فرح لم يحاول نبيل أن يخفيه عاد يهتف :

« ده معنى كده إن مفيش مخلوق ممكن يحس بحاجة ! » .

« على شرط ! » .

« إيه هو ؟! » .

« أننا ما نتقابلش علني بعد كده ! » .

« وهو كذلك . . . لكن . . . . . » .

أمسك نبيل عن الكلام برهة ، تساءل بعدها :

« ما نتقابلش علني ؟! » .

« مش من مصلحتك إن حد يشوفنا سوا ! » .

« حاتبقى تجيني الأوضة هنا ؟! » .

« غلط ! » .

« أمال . . . . . » .

قاطعه أبو سليم وقد لاحظ حماسه :

« حيلك عليَّ شويه ، الحكاية مش لعبة . . . دي لها أصول وقواعد لازم تتعلمها ! » .

قفز نبيل من مكانه وقد عاد إليه نشاطه :

« عارف إن معنى كده إن مفيش مخلوق ممكن يمسك عليَّ حاجة ! » .

ابتسم أبو سليم فأشار نبيل إلى الأوراق التي كانت في يده مازحاً :

« يعني الكام ورقة دول يبقوا القسط الأول ؟! » .

لم يفكر نبيل سالم فيما بعد أنه كان سعيداً في ذلك الصباح إلى الحد الذي جعله يعلن سعادته في وضوح . . . قال إنه كان كلما تذكر ذلك الصباح أصيب بدهشة بالغة وكأن ما كان يعنيه هو ألا يعلم أحد في مصر ماذا يفعل . . . قال إنه في بعض الأحيان كان يحتقر نفسه لإحساسه هذا لكنه لم يكن يملك إلا أن يفعل !!

« مش حاتاخد دش قبل ما تستلم شغلك الجديد ؟! » .

هكذا أيقظه أبو سليم مما كان فيه . . . إرتد إليه متوتراً :

« على الله بس تكون شغلانة كويسة ! » .

« عارف الجراج اللي كنا فيه أول إمبارح ؟! » .

« بتاع الخواجه باروخ ؟! » .

« آهو إنت حاتشتغل هناك ! » .

عاد نبيل إلى مقعده وهو يضم ما بين حاجبيه :

« وحاشتغل إيه هناك ؟! » .

« إنت مش لسه كنت بتحكي لي ، وكتبت في الورق ده إنك قابلت جماعة مصريين كان فيهم ناس عاوزين يشتروا عربيات ؟! » .

« ده صحيح ! » .

« والشاب اللي انت اتصاحبت معاه ده عاوز عربية لما يحوّش فلوسها . . . هو اسمه إيه ؟! » .

« شريف بكري » .

« كل اللي عليك إنك تدلهم على الجراج وتجيب لهم خصم ولما حد يشتري عربية حاتبقى لك نسبة من ثمنها ! » .

همَّ نبيل بالسؤال فأردف أبو سليم :

« ده غير المرتب ! » .

« كل ده حلو قوي . . . بس مهما كانت الفلوس اللي حاكسبها من بيع العربيات ، مش حاكسب الربع مليون مارك إلا بعد . . . . . » .

قاطعه أبو سليم :

« ما هو ده اللي احنا لازم نتكلم فيه ! » .

أراد نبيل أن يستزيد من الرجل لكن هذا نظر في ساعته قائلاً إنهما على موعد مع السنيور اسكالكو صاحب الجراج لاستلام العمل . . . بعد أقل من ساعة كان نبيل يجلس إلى هذا الرجل الإيطالي الضخم الجثة الهائل التقاطيع الشديد الأناقة الذي رحب أول أمس بأبي سليم فور دخوله إلى المبنى قبل لقائه بالسيد باروخ . . . كان السنيور اسكالكو لا يعرف الابتسام إلا نادراً ، لم يستغرق الإتفاق بينهما سوى دقائق وكان كل المطلوب من نبيل أن يتعامل مع المصريين أو العرب الراغبين في شراء سيارات . . . اكتشف نبيل أن المسألة أبسط بكثير مما تصور . . . اتفقا على المرتب ونسبة من ثمن السيارة لو بيعت في الجراج ونسبة أخرى إذا ما جلب نبيل الزبون من الخارج . . . علم أن مواعيد العمل تبدأ في التاسعة صباحاً وتنتهي في الخامسة بعد الظهر ، لكنها ـ بالنسبة إلى نبيل ـ تنتهي في الواحدة ظهراً ، إذ سيصبح عليه أن ينزل إلى السوق وأن يتصيد الزبائن ويرشدهم إلى الجراج !

كان نبيل يجلس إلى الرجل في مكتب صغير في الدور الأرضي يطل على الساحة ويكشف كل ما يدور فيها . . . الآن اكتشف نبيل أن الدور الأرضي يضم بضعة مكاتب أخرى يشغلها موظفون وموظفات وكان في الساحة مشترون وسماسرة . . . كان الحديث يدور بينه وبين اسكالكو بمزيج من الإيطالية والإنجليزية فلم يتدخل أبو سليم ـ الذي كان حاضراً منذ البداية حتى النهاية ـ بكلمة ولم يفتح فمه بحرف . . . حتى إذا انتهت المناقشة قال السيد اسكالكو وهو ينهض من خلف مكتبه ، إن نبيل لن تكون له علاقة بأي من الموظفين سواه هو والسنيورينا مارشيلا . . . كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها نبيل

اسم « مارشيلا » لكنه لم يكن قد استوعب ما قاله الرجل استيعاباً كاملاً . . . قبل أن يطلب إيضاحاً رفع سماعة التليفون وتحدث لثوانٍ ثم أعادها فإذا فتاة إيطالية صارخة الجمال تدلف إلى الغرفة بعد دقائق وتلقي إلى أبي سليم بتحية من يعرفه منذ سنوات . . . قدم سنيور اسكالكو نبيل لمارشيلا قائلاً :

« هذا هو صديقنا المصري الجديد يا مارشيلا ! » .

التفتت الفتاة نحو نبيل وشملته بنظرة طالت بعض الشيء . . . كانت عيناها خضراوين غريبتين ذات نظرات فياضة غامضة . . . هزت له رأسها في تحية مقتضبة ثم وكأن ابتسامة لاحت على وجهها قالت :

« اتبعني من فضلك ! » .

قالتها بإنجليزية واضحة وهي تستدير مغادرة الغرفة فوراً . . . تلفت نبيل حوله نحو الرجلين المحيطين به ، ثم استقرت عيناه عند أبي سليم فقال :

« حاشوفك إمتى ؟! » .

قال أبو سليم باسماً :

« مارشيلا حاتقول على كل حاجة ! » .

* * *

قال نبيل سالم فيما بعد إنه لم يكن يتمنى في ذلك اليوم شيئاً إلا أن يعطى فرصة كي يلتقط فيها أنفاسه ، لكن الأحداث تتلاحق في سرعة لم تعطه الفرصة أبداً للتوقف أو التأمل أو التفكير . . . قال إن العرض الذي قدمه له السيد اسكالكو كان مرضياً ، لكن ما كان يشغل باله هو ذلك الإيصال الذي وقعه في لحظة لم يكن يستطيع فيها إلا أن يوقع على دين مقداره ربع مليون مارك ألماني . . . وإنه كان متلهفاً للحديث مع أبي سليم حول هذا الأمر . . . لكن مارشيلا قادته من مكتب اسكالكو مخترقة به ذلك البهو الذي يلي باب المبنى صاعدة السلم المؤدي إلى الطابق العلوي فتبعها . . . عندما أصبحا في ذلك الممر الذي ينتهي بغرفة باروخ التي قضى فيها عشر ساعات منذ يوم واحد ، قادته مارشيلا إلى غرفة أخرى عرف فيها مكتبها هي . . . كانت الغرفة صغيرة

لكنها كانت أنيقة وثمة فازة بها بعض الورود التي كانت ترسل شذاها فإذا جو الغرفة معطر برائحة الورود مختلطة بذلك العطر الذي كان يفوح من أعطاف تلك الفتاة الخضراء العينين . . . أشارت إلى مقعد أمام مكتبها وجلست قائلة بإنجليزية سليمة تماماً :

« والآن . . . هل تحب أن تتفاهم بالإنجليزية أم إنك ربما تحب التفاهم بالإيطالية ! » .

قال نبيل في حرج :

« أنا لا أتقن من الإيطالية سوى بضع كلمات لا أعتقد أنها تكفي للتفاهم ! » .

« ولم لا تحاول . . ومع قليل من الجهد سيصبح الأمر أكثر سهولة ! » .

كان واضحاً أنها قد اتخذت القرار فتساءل :

« هل نحاول بالحوار ؟! » .

« وقليل من الدراسة ! » .

قالت هذا وهي تخرج من درج مكتبها كتيباً صغيراً لتعلم اللغة الإيطالية ، فتذكر نبيل سالم شيرلي هايمان على الفور !

« لو إنك قرأت في هذا الكتاب كل يوم صفحة واحدة ، فلسوف تتحدث الإيطالية بعد شهر واحد من الآن ! » .

قالت له شيرلي هايمان إنها يهودية وإنها تخاف على أهلها وبني جنسها في إسرائيل ، فهل يكتشف ذات يوم أن مارشيلا كذلك كما اكتشف أن أبا سليم ليس بعيداً عن الظن ؟! . . . تناول منها الكتاب وألقى عليه نظرة سريعة وهو يغمغم غائب الذهن :

« سأبذل قصارى جهدي ! » .

« والآن . . . هذا كشف بالسيارات الموجودة لدينا . . . هي الآن حوالي مائتي سيارة فقط ، ولسوف تجد في الكشف أمام كل سيارة ماركتها وسنة صنعها وحالتها ولونها وثمنها وكل ما يريد المشتري أن يعرف عنها ! » .

قبل أن يفتح فمه نهضت مارشيلا إلى تلك النافذة الزجاجية المطلة على الساحة فنهض خلفها دون دعوة وكانت في الساحة أناس يتحركون ومشترون يعاينون وموظفون يشرحون .

« عليك الآن تنزل إلى الساحة وأن تدرس الموقف جيداً » .

همَّ بالحديث فإذا بها تلتفت نحوه وقد غمرته عيناها الخضراوان بنظرة جعلت الرعدة تسري في جسده وهي تقول :

« لا بد إنك تعرف رغبات بني وطنك من المصريين والعرب ، وأي نوع من السيارات يفضلون ، والأثمان التي يستطيعون دفعها . . . ثم . . . ثم سيكون الأمر بعد ذلك سهلاً ! » .

« أهذا هو كل شيء ؟! » .

« حتى الآن ! » .

قالتها وهي تعود إلى مكتبها كي تنكَبّ على أوراق كانت أمامها وتستغرق فيها وكأنه غير موجود . . . أصابته خيبة أمل فسار حتى التقط ذلك الكتيب الصغير من فوق المكتب . . . خطا نحو الباب خطوة فعن له أن يسأل سؤالاً ، استدار قائلاً :

« وماذا لو أني وجدت أن السيد . . . . . » .

قاطعته دون أن ترفع إليه رأسها :

« سوف تعود إليّ في كل شيء ، ولا تشغل وقت السيد اسكالكو فأنا أستطيع إجابتك على أي سؤال ، كما إني أستطيع أن أحل لك أية مشكلة ! » .

همَّ بالإنصراف فرفعت إليه رأسها ، تسمر في مكانه عندما غمرته عيناها الخضراوان بتلك النظرة الفياضة ، أحس بالضياع والحيرة عندما قالت باسمة :

« أعتقد أننا سنكون فريقاً لا بأس به ! » .

اشتم في جملتها رائحة نورية رطبت صدره ، فابتسم هاتفاً :

« أرجو هذا . . . أرجو هذا ! » .

ومنحته مارشيلا شبح ابتسامة سرعان ما اختفى خلف شفتيها ، ولم يكن أمامه سوى أن يغادر الغرفة وقد داهمت ذكرياته مع شيرلي هايمان !!

* * *

أمضى نبيل الجزء الأول من نهاره في الساحة يطوف بالسيارات ويدرس ويشاهد ويقارن ويتحرك على مهل وقد استغرق في التفكير . . . كان يعلم كم هي مربحة تجارة السيارات ، وكان يعلم أن لديه القدرة على اجتذاب الناس وإقناعهم فقرر أن يجمع أكبر قدر من المال . . . ذات لحظة أحس بالخدر يسري في أوصاله ورغبة عارمة في النوم ، عاد إلى المبنى وتناول فنجاناً من القهوة المركزة . . . قرر أن يخوض معركته بشراسة وبلا هوادة وأن ينتصر مهما كان الثمن أو العقبات ، في الواحدة عاد إلى مارشيلا كي يتفق معها على برنامج عمل فاستقبلته بنفس النظرة الفياضة لكنه تجاهل نظرتها وكانت له بضع ملاحظات استمعت إليها في اهتمام ، عندما انتهى من عمله همَّ بالانصراف فقالت له :

« إن السيد باروخ في انتظارك ! » .

« باروخ ؟! » .

هكذا هتف محملقاً فيها بدهشة وقد داخله بعض من الاضطرابات ، سددت إليه نظرة أدارت رأسه لكنه تمالك نفسه وهو يشير ناحية مكتب باروخ ، فابتسمت قائلة :

« نعم . . . إنه في نفس المكتب ! » .

كانت لهجتها مثل ملامحها الآن تجذبك إليها وتصدك عنها في نفس الوقت . . . ولم يكن أمامه سوى أن يهز رأسه ثم يغادر الغرفة . . . سار حتى آخر الممر ، وقف بالباب حتى استرد أنفاسه ، دق دقتين جاءه بعدها صوت جهوري يصيح بالعربية :

« أدخل ! » .

انتفض وهو يفتح الباب ويندفع نحو الداخل كي يطالعه أبو سليم جالساً خلف المكتب .

« أهلاً نبيل ، أدخل ! » .

خطا نحو الداخل وهو ينظر فيما حوله ولم يكن هناك سوى أبو سليم ، غمغم متقدماً من الرجل وقد وصلته الرسالة صارخة واضحة لا غموض فيها ، قال :

« مارشيلا قالت لي إن باروخ عاوزني ! » .

ضحك أبو سليم قائلاً في مراوغة ضايقت نبيل :

« يظهر إنها فاكرة إنه لسه هنا ! » .

جلس نبيل على مقعد وثير مشرئباً فسأله أبو سليم :

« إيه أخبار الشغل ؟! » .

« كويس ! » .

« وإيه أخبار سامية فهمي ؟! » .

كان السؤال مباغتاً فانتفض ملتفتاً نحو الرجل . . . أدرك نبيل بوضوح ، أن للسؤال الآن معنى آخر ، ومغزى آخر . . . فخفق قلبه بعنف أوجعه !

* * *

الفصل الثامن عشر

انجح من أجل مصر ومن أجلي !

عندما ذكر أبو سليم اسم سامية فهمي بغتة وعلى غير انتظار ، أرتج على نبيل سالم . . . كانت سامية هي الشخص الوحيد في العالم الذي لا يريد الآن ولا يستطيع أن يواجهه أو حتى يفكر فيه . . . رغم ما كان قد احتساه من فناجين القهوة المركزة ، ورغم الانتعاش الذي أصابه ، إلا أن سلطان النوم راح يستولي عليه الآن بعنف . . . أحس أنه يفقد توازنه تدريجياً ، لكنه ، وهو ينظر الآن إلى أبي سليم عبر المكتب ، كان قد أدرك كل شيء بوضوح . . . تداعت شيرلي هايمان إلى ذهنه في نفس اللحظات التي كانت مارشيلا تقوم معه بنفس الدور . . . فهل تلعب مارشيلا معه نفس اللعبة ؟! . . . أحس وكأنه يهذي وراحت الأفكار تختلط في ذهنه اختلاطاً شديداً . . . فما هذا الذي يحدث له . وما هذا الذي يحيط به . . . مصادفات قدر محتوم أم أن غباءه وقلة حيلته وضعفه قادته جميعاً إلى ما هو فيه الآن . . . كان لا بد له من الرد على سؤال الرجل فقال :

« إيه اللي فكرك بسامية فهمي دلوقت يا بو سليم ؟! » .

« إحنا مش اتفقنا من الأول ؟! » .

« اتفقنا على إيه ؟! » .

« على إنك ما تفقدش علاقتك بيها ! » .

« هو أنا كنت في إيه وإلا في إيه ؟! » .

« إنت بطلت تكتب لها من إمتى ؟! » .

كان هذا السؤال الذي لا يريد أن يسمعه أو يجيب عنه ، لكن أبو سليم ظلّ

صامتاً محملقاً فيه فاضطر إلى الغمغمة وكأنه يحدث نفسه :

« مكانش ممكن . . . مكانش ممكن ! » .

« هو إيه اللي مكانش ممكن يا نبيل ؟! » .

كان الرجل يضغط فصاح نبيل في تمرد واضح :

« يعني انت كنت عاوزني أكتب أقول لها إني باحبك في الوقت اللي كنت فيه . . . . . » .

صمت نبيل متململاً فقال أبو سليم :

« مين اللي قال لك تتكلم عن الحب ؟! » .

« إنت ما تعرفش علاقتي بسامية شكلها إيه ! . . . » .

« علشان كده أنا مش عاوزها تنتهي ! » .

في يأس أدرك أن الرجل لن يكف عن الضغط ، في يأس قال :

« رإيه اللي مطلوب مني دلوقتي ؟! » .

« تكتب لها تاني ! » .

قفز من مكانه كمن لُدِغَ ، مال نحو أبي سليم وقد تنبهت كل حواسه :

« أكتب ؟! . . . أكتب أقول لها إيه ؟! » .

« قول لها اللي حصل لك ؟! » .

صرخ كالمجنون :

« إيه ؟! » .

« قول لها إنك مريت بظروف صعبة في ألمانيا ، وإنك اضطريت تسافر إيطاليا ، وإنك دلوقت استقريت وأحوالك إتحسنت وبقت لك وظيفة ثابتة ! » .

لوح في وجه أبي سليم بأصبعه مزمجراً :

« شوف يا بو سليم . . . اللي أوله شرط آخره نور ! » .

رفع أبو سليم حاجبيه وقد بدت على وجهه دهشة عبرت عنها ابتسامة

ساخرة . . . وصلت الرسالة إلى نبيل فوراً فهو لم يكن في موقف من يستطيع بأن يملي شروطاً ، أحس في داخله بإنهيار مفاجىء فألقى بنفسه فوق المقعد وجاء صوته الآن متوسلاً :

« بلاش سامية فهمي من فضلك يا بو سليم . . . خلينا في اللي إحنا فيه وبلاش سامية ! » .

نهض أبو سليم من مكانه دائراً حول المكتب :

« حاتقابل شريف بكري الليلة ؟! » .

أدرك نبيل أن الرجل يطرح الموضوع جانباً لكنه سوف يعود إليه إن آجلاً أو عاجلاً ، فما دخل سامية فيما هو فيه الآن . . . دهمه اكتئاب أغرقه فاستغرق فيه ، جاءه صوت الرجل يسأل :

« إيه يا نبيل ؟! » .

رفع نبيل إليه عينين تائهتين .

« أنا باسألك إن كنت حاتقابل شريف الليلة ؟! » .

« المفروض ! » .

هَمّ أبو سليم بالحديث ، لكن نبيل لاحقه وكأنه يعتذر عن عصبيته وحِدّته :

« والمفروض إني أنام لي ولو ساعتين علشان أعرف أشتغل ! » .

ملأت الإبتسامة وجه أبي سليم ، أخرج من جيبه رزمة من الدولارات الأمريكية عد منها مائة دولار قدمها لنبيل قائلاً :

« دي مكافأة التقرير اللي كتبته عن شريف بكري رغم إنه ما كملش ! » .

جمد نبيل في مكانه وقد هاله صوت أبي سليم من بعد سحيق :

« تحب تاخدهم والاّ أخصمهم من الدين ؟! » .

« أنا عاوز أنام ! » .

قال نبيل سالم عن تلك اللحظات إنه كان يشعر وكأن جبلاً كان يجثم فوق

صدره ، أعاد أبو سليم المبلغ إلى جيبه وهو يسير نحو الباب فتبعه نبيل دون إرادة !

« على العموم كل ما كان الشغل كويس كل ما المكافأة كبرت ، وكل دينك ما اتسدد ! » .

فتح له الباب فنفذ منه نبيل . . . وعندما أصبح في الطريق وحده ، كانت رغبته في البكاء تفوق كل رغبة أخرى لديه !!

* * *

في المساء ، التقى نبيل سالم بشريف بكري حسب الموعد المضروب بينهما ، كان شريف كعهده مرحاً مستبشراً ودوداً منطلقاً . . . سأله نبيل إن كان قد وُفّقَ في الحصول على عمل ، فضحك هذا قائلاً إنه لا يزال على باب الله . . . فقال نبيل ضاحكاً :

« إلحق لاقي شغل وَحوّش علشان أنا اللي حاجيب لك العربية اللي نفسك فيها ! » .

نظر إليه شريف نظرة استفسار ، فقال نبيل :

« أصلي لقيت شغل النهار ده ! » .

ولقد كانت مناسبة هامة لا بد من الاحتفال بها بين الصديقين الذين راحا يجوبان شوارع نابولي معاً . . . قال نبيل لشريف إنه كان يسير في الشوارع على غير هدى عندما وجد نفسه داخل ساحة لبيع السيارات المستعملة . . . تذكر شريف ورغبته في شراء سيارة قبل عودته إلى مصر ، فقام بجولة بين السيارات وهو يقارن بين الموديلات والأثمان . . . تصادف وجود رجل عربي كان يحاول شراء سيارة من رجل إيطالي وكان الحوار بينهما عسيراً . . . ذلك أن العربي لم يكن يتحدث من اللغات الأجنبية سوى الإنجليزية ، بينما الإيطالي لا يعرف سوى لغته . . . وهكذا ، ولأن نبيل يتقن من الإيطالية بضع كلمات ، فلقد تدخل بينهما حتى تمت الصفقة . . . همّ بالمسير عندما دعاه الرجل الإيطالي الذي عرف أن اسمه سنيور اسكالكو إلى فنجان من القهوة في مكتبه ، كان

الرجل سعيداً وهو يشكره على الجهد الذي بذله ، وشفع شكره هذا بأن نفحه بضعة آلاف من الليرات الإيطالية . . . قال نبيل لشريف بكري إنه دهش متسائلاً عن السبب في إعطائه هذا المال ، فقال الرجل إنه بذل جهداً لإتمام الصفقة ، وهذا حقه نظير الجهد المبذول . . . وهكذا ، قادهما الحوار إلى أن عرض السنيور اسكالكو على نبيل أن يعمل معه في الجراج نظير مرتب لا بأس به ، ونسبة على كل سيارة يبيعها !

هكذا كانت القصة التي لقّنها أبو سليم لنبيل متقنة مقنعة ، وهكذا قصها نبيل على شريف مضيفاً إليها من الحواشي ما جعل شريف يعلن دهشته وسعادته معاً . . . وما أن انقضت تلك الليلة حتى كان عدد لا بأس به من المصريين قد تعرفوا على نبيل سالم ، وكانت الليلة مرحة ، ارتاد فيها نبيل وشريف أماكن عدة . . . وكان لا بد للحوار أن يأخذ مجراه وللأحاديث أن تتشعب ، فما أن مضت ساعتان حتى عرف نبيل من شريف بكري كل ما كان يريد أن يعرفه عنه . . . بدا له الأمر سهلاً سهولة شديدة ، بل . . . بل إن كل ما حصل عليه نبيل من شريف لم يكن ـ من وجهة نظره ـ يمثل أية خطورة . . . فما الذي ستجنيه إسرائيل إذا ما عرفت أن شريف موظف في وزارة الصناعة وأن والده مدير إدارة في إحدى المؤسسات الصحفية وأن والدته مفتشة بوزارة العمل ، وأن أخاه ضابط في الصاعقة ، وأخته أستاذة جامعية ؟!!

حصل نبيل سالم بسهولة شديدة على كل المعلومات التي يريد معرفتها عن شريف بكري . . . وكان شريف ـ من ناحية أخرى ـ وبعد مضي أقل من ساعة قد تيقن من هدف نبيل تماماً ، فراح يتطوع في بعض الأحيان بالإدلاء ببعض المعلومات التي جعلت لعاب أبو سليم يسيل عندما التقى فيما بعد بنبيل !

« بعد ذلك بسنوات طويلة ، اعترف لي عادل مكي أن هذه كانت المرة الأولى التي تعرف فيها المخابرات المصرية ان ساحة السيارات تلك كانت واجهه أو ساتراً اتخذته المخابرات الإسرائيلية كي تمارس من خلاله نشاطها في اصطياد العديد من الشباب ، بل ومن الشخصيات العربية والمصرية بالذات . . . وان نشاط ذلك الساتر كان يتزايد يوماً بعد يوم حتى أصبح يمثل مركزاً خطيراً لشبكة من أكثر شبكات الموساد نشاطاً ! » .

« كما اعترف لي بعد إلحاح طال ، وتذمر لم يحاول أن يخفيه ، أن المعلومات التي أدلى بها شريف بكري إلى نبيل سالم كانت صحيحة تماماً ، وأن شريف عندما عاد إلى عمله في القاهرة بوزارة الصناعة ، كان قد أصبح ـ أثناء وبعد شرائه للسيارة ـ على علاقة مباشرة بالسيد اسكالكو أولاً ، ثم بأبي سليم ، وهي علاقة لم يعرف عنها نبيل شيئاً على الإطلاق . . . لكنه رفض أن يخوض في الحديث بعد ذلك بكلمة واحدة !! » .

ولكن . . . ومن وسط أحداث تلك الليلة التي امتلأت بالحوار والأحداث والحديث عن الوطن والنكسة والعودة والهجرة وما يجب وما لا يجب . . . كان ثمة دقائق لها وزنها الخاص ، ليس عند المخابرات الإسرائيلية فقط ، ولكن عند نبيل سالم ، وربما المخابرات المصرية أيضاً !

فلقد التقى نبيل وشريف أثناء تجوالهما بمجموعة من المصريين كانوا قد احتلوا ركناً في أحد تلك البارات أو المقاهي التي تشبه الكهوف وتقدم أرخص أنواع المشروبات والأطعمة والتي تتناثر بالمئات فيما حول الميناء الكبير . . . كانت مصادفة تلك التي ألقت بهما في طريق هذه المجموعة التي كان بينها صحفي شاب وطبيب حديث التخرج وطالب في كلية الهندسة ثم فتاة في حوالي الخامسة والعشرين ، شديدة النحافة ، مسترجلة الطبع والتصرف ، مستقيمة استقامة صارمة ، ولقد عرف نبيل أثناء الحوار الذي احتدم حول النكسة وأسبابها ، إنها تعمل مندوبة إعلانات بإحدى المؤسسات الصحفية ، وكانت هي نفس المؤسسة التي تعمل فيها سامية فهمي . . . وما أن ذكرت الفتاة ـ التي كان اسمها زينب درويش ـ مكان عملها حتى وجد نبيل نفسه يسأل :

« على كده إنتي تعرفي سامية فهمي ! » .

قالت زينب في دهشة :

« سامية . . . دي حبيبتي ! » .

ابتسم نبيل ولزم الصمت فأردفت زينب :

« إنت تعرفها ؟! » .

« يعني ! » .

« هو إيه اللي يعني . . . ده مش جواب ! » .

« إنتي عاوزه إيه بالضبط ؟! » .

« إنت تعرف سامية فهمي منين ؟! » .

« قريبتي ! » .

« مش ممكن ! » .

« إشمعنى ؟! » .

« علشان سامية فهمي بالذات مش ممكن يكون لها قرايب صعاليك زيك ! » .

كانت قفشة ضحك لها الجميع في مرح ، غير أن نبيل لم يضحك ، بل بدا وقد أربد وجهه .

« إنت زعلت يا أستاذ نبيل ؟! » .

« إيه اللي خلاكي تقولي كده يا أستاذة زينب ؟! » .

بدت على زينب الحيرة وهي تردد البصر فيمن حولها قائلة :

« ما عرفش . . . بيتهيألي إني كنت باهزر ! » .

كان هذا اعتذاراً كافياً ، لكن زينب أردفت :

« ثم إني باعتقد ـ من غير ما تزعل ـ إن كلنا كده صعاليك ! » .

« بس أنا مش صعلوك ! » .

صاح الصحفي :

« وهي الصعلكة وحشة ؟! » .

« أنا إنسان محترم ولي وظيفة محترمة وباكسب فلوس بعرق جبيني ! » .

قال نبيل هذا بحدة فساد الصمت والوجوم ورفرف الحرج فوق رؤوس الجميع . . . وكان نبيل يتساءل عن سر غضبه هذا الذي انفجر دون مبررٍ كافٍ . . . راح يسأل نفسه إلى هذا الحد يخشى أن تعرف سامية عنه ما

يشين ؟! . . . خرج من سهومه على صوت زينب درويش وهي تستعد للانصراف قائلة :

« على كل الأحوال أنا آسفة اللي خرجت عن حدودي ! » .

زاد أدبها من عمق جرحه فهتف في حرارة :

« أنا اللي آسف ! » .

توقفت محملقة فيه فقال :

« أنا يمكن أكون عصبي شويه لأني استلمت شغل جديد النهار ده ! »

وهكذا ، عاد الحديث إلى مجراه وقد صفت النفوس !

* * *

« غلط . . . غلط ! » .

« هو إيه غلط يا بو سليم ! » .

« عصبيتك دي كانت غلط ، وكلامك غلط ، واعتذارك غلط ! » .

« آهو ده اللي حصل ! » .

« مفيش حاجة اسمها اللي حصل يا أستاذ ! » .

« أبو سليم ؟! » .

« ثم إيه اللي خلاك تقول إن سامية قريبتك مش خطيبتك ؟! » .

« ما اعرفش ! » .

« مش فيه احتمال إن زينب درويش دي تقول لها على اللي حصل ! » .

« وافرض » .

« إنت قلت لي إن سامية بتعتبر إنكم مخطوبين ! » .

« أيوه ! » .

« عاوز تجرح شعورها وتحرجها قدام زملاءها ؟! » .

« ما خطرش ببالي ده ! » .

« كان لازم يخطر ببالك ، وكان لازم تنتبه ! » .

صرخ نبيل محتجاً :

« وكان لازم أنام وآخد راحة علشان مخي يفكر ! » .

« وإيه اللي منعك ! » .

« انت ! » .

« إزاي ؟! » .

« تقدر تقول لي أنا حاقدر على كل ده إزاي ؟! » .

« مش فاهم ! » .

« أنا علشان أجيب الأخبار اللي انت عاوزها سهرت لحد الساعة ستة الصبح ، وكان لازم أروح الجراج الساعة تسعة ! » .

« ودي فيها إيه ؟! » .

« الخواجه اسكالكو لازم يراعي المسألة دي شوية ! » .

صمت أبو سليم قليلاً ، ثم مال على نبيل في جدية بدت في نظراته ونبرة صوته :

« الخواجه اسكالكو مالوش دعوة بحاجة غير شغله ، ولا يعرفش عننا حاجة غير إننا بنشتغل معاه في تجارة العربيات ! » .

أدرك نبيل أنه من المستحيل أن يفك الحصار الذي ضرب من حوله ، عاد مرة أخرى إلى الاستسلام . . . بعد لحظة صمت سأل أبو سليم :

« وإيه اللي اتقال على سامية فهمي تاني ؟! » .

« ولا حاجة . . . كل اللي قالوه إنها بتكتب بصراحة ولا بيهماش حد ! » .

« غريبة ! » .

« إيه اللي غريب في ده . . . سامية كده طول عمرها ! » .

« حتى ولو كانت صريحة وطول عمرها كده . . . إزاي بيسيبوها ، إزاي بينشروا لها ! » .

كان السؤال واضحاً ، لكن نبيل لم يكن يملك إجابة . . . عاد أبو سليم يقول :

« في نظام زي نظام عبد الناصر ، اللي بيكتب بالشكل ده بيبقى مسنود ! » .

« قصدك إيه ؟! » .

« قصدي إنك تكتب لها يمكن تنفعك في يوم من الأيام ! » .

كانت الجملة موجبة بقدرٍ كاف ، وكانت ـ في نفس الوقت ـ تدق على ذلك الوتر الذي يدفع إلى الحركة الذاتية دفاعاً عن النفس . . . فلقد هتف :

« وبعد ما أكتب لها ؟! » .

« حاترد عليك ، وترجّع اللي فات ! » .

« تفتكر المسألة تستاهل ؟! » .

« إنت وشطارتك ! » .

وهكذا . . . وقبل أن يكتب نبيل سالم تقريره عن تلك الليلة ، جلس إلى الورق والقلم ، وراح يكتب خطابه الأول لسامية فهمي من إيطاليا !

* * *

قالت لي سامية فهمي وهي ترتجف انفعالاً مع استعادتها لذكريات تلك الأيام . . . إنها كانت في ذلك الوقت أسعد فتاة في العالم . . . كانت خطابات نبيل قد انقطعت منذ شهور طالت ، واضطرت هي الأخرى إلى التوقف عن الكتابة لكن القلق كان ينهشها خوفاً على نبيل . . . قالت إنها لم تشك لحظة واحدة في إخلاصه لها ، لكن الفكرة التي سيطرت عليها في تلك الأيام هي فكرة مرضه إلى الحد الذي دفعها إلى التفكير في السفر إلى ألمانيا للبحث عنه والاطمئنان عليه . . . كانت مصر في تلك الأيام تبدو كخلية نحل لا تكف ولا تهدأ ليلاً أو نهاراً ، أفاق الناس من صدمة النكسة فاندفعوا يعملون جهد طاقتهم . . . أصبحت مصر مثل آلة هائلة تتحرك جميع أجزائها في اتجاهٍ واحد . . . هو التحرير !!

امتص العمل التنظيمي جزءاً كبيراً من وقتها خاصة بعد أن التحقت بالمعهد العالي للدراسات الإشتراكية . . . في تلك الأيام جاءت مظاهرات الطلبة تعبيراً عن قلق الشباب البالغ حول مصير أمتهم . . . وكانت هي من المدافعين عنهم رغم ما كلفها هذا من جهد ومناقشات واتهامات خاصة في اجتماعات التنظيم الطليعي أو محاضرات المعهد الإشتراكي حتى أحست ذات يوم أنها تحارب في

جبهة وحدها . . . وسط هذا الأتون الملتهب وصلتها رسالة نبيل الأولى كجائزة أهدتها لها السماء . . . قرأت خطابه القصير عشر مرات قبل أن تمسك بالقلم وتكتب له :

« نبيل . . . » .

« جوابك وصلني ، فرحت بيه جداً ، مشغولة لشوشتي وقلقانة عليك . . . مبروك الشغل الجديد ، ومبروك عليك إيطاليا وبناتها الحلوين . . . اشتغل يا نبيل ، اشتغل جامد وانجح ، لازم تنجح . . . انجح علشان مصر وعلشاني . . . سامية » .

كتبت الخطاب بسرعة لأنها كانت على موعد مع ندوة سوف تعقد في أمانة الدعوة والفكر بالإتحاد الاشتراكي لمناقشة موضوع مظاهرات الطلبة !! .

* * *

كانت سامية قد قررت عقب مغادرتها لعادل مكي في ذلك الصباح دون حديث أن تواجه نفسها مهما كانت العقبات أو العواقب ، أحست أنها أنهكت هذا الرجل بقدر يكفي لأن تقف على قدميها ، خاصة عندما طلبته في التليفون بعد مغادرتها إياه طالبة موعداً في نفس اليوم لكنه أجل الموعد إلى ما بعد الغد . . .

قالت لي سامية إن هذا الأمر صدمها للوهلة الأولى صدمة روعتها .

وقال لي عادل مكي ونحن نناقش هذا الموضوع ، إن هذا شيء طبيعي للغاية ، فلقد لاحظ أن كل مَنْ يُقْدِم على تلك الخطوة التي أقدمت عليها سامية فهمي ، يشعر في أعماقه ـ ربما بلا وعي ـ أنه يقدم لبلاده خدمة جليلة على كل الناس أن يقفوا لها احتراماً . . . وهذا حقيقي بالتأكيد ، لكن المبالغة النفسية في مثل هذه الأمور قد تفسدها . . . وهو ، كان يعلم يقيناً إن سامية تمر بمحنة ، وان المحنة قد ضغطت عليها إلى الحد الذي أصبحت فيه في حاجة إلى الراحة ، وإعمال العقل ، والتفكير بروية ودون انفعال ولولا إحساسه بما كانت سامية تعانيه من ضغوط لكان قد أجّل الموعد أسبوعاً كاملاً !

قال : إن التحرك في مثل هذا الحقل يستلزم قدراً كبيراً من صفاء الذهن . . . وإن ذهن سامية بالقطع لم يكن صافياً في تلك الأيام الأولى . . . ولقد كان هو في حاجة إليها وإلى صفاء ذهنها ، كما كانت هي في حاجة إلى وقت حتى تستطيع استيعاب الحقائق التي كانت مقدمة على مواجهتها . . . ثم ، وعلى الوجه الآخر ، كانت خطابات نبيل سالم التي جاءته بها سامية ، تحتاج منه إلى بعض الوقت كي يكمل من خلالها صورة العملية بقدر ما يستطيع من وضوح حتى في أدق التفاصيل وأصغرها . . . ولم يكن الأمر ـ فوق كل هذا ـ أمر قراءة أو تحليل واستنتاج فقط ، بل كانت هناك علوم أخرى لا بد وأن تقول كلمتها في الأمر بعد تحليل الخط ونوع الورق والحبر وما إلى ذلك !

وعلى هذا ، فما أن مرَّ ذلك اليوم ، وجاء الصباح التالي حيث موعد سامية معه ، حتى كان على استعداد لسماع القصة منها ، والسير بالأمر كله نحو نهاية كانت تبدو ضرورية إلى أقصى حد !!

. . . . . .

. . . . . .

نظرت السيدة إقبال حسين نحو ابنتها وقالت باسمة :

« نمتي كويس الليلة ؟! » .

« نمت يا ماما . . . نمت فعلاً بس مش كويس قوي ! » .

« ليه ؟! » .

« بيتهيألي إني حانام الليلة نوم عميق جداً ! » .

كان صوت سامية الآن ، ونبرتها ، وأسلوبها . . . توحي جميعاً أن ثمة شيء جديد يلون فكر هذه الفتاة التي عاشت الأسابيع الماضية في أتون ملتهب من جحيم لا يرى !

« عندك ميعاد تنظيمي برضه ؟! » .

« أيوه ! » .

« نفس الميعاد ؟! » .

رفعت سامية رأسها نحو أمها وكانت حضرة الناظرة تبتسم . . . داخلتها الحيرة نحو أمها فتساءلت فيما بينها وبين نفسها إن كانت أمها تعلم أنها تذهب إلى المخابرات مثلما كانت تعلم أنها انضمت إلى التنظيم الطليعي ؟ . . . واجهت ابتسامة أمها بابتسامة واثقة ، مدت يدها تمسك بيد أمها في حنان ، قالت هامسة :

« ماما . . . ما تخافيش عليَّ ! » .

« ما اقدرش !! » .

« وإذا وعدتك إني مش حاتصرف إلاَّ التصرف الصحيح . . . تبطلي قلق ؟! » .

هربت السيدة إقبال من نظرات ابنتها ، غمغمت :

« على العموم إنتي النهار ده أحسن كثير ! » .

وكان هذا بالضبط ما كانت تفكر فيه سامية منذ أن استيقظت في الصباح . . . كان الحزن موجوداً والألم قائماً ومرارة الهزيمة كالمر في حلقها ، لكنها كانت تشعر إنها الآن أقدر على مواجهة الأمر بعد أن عايشته طوال تلك الأسابيع !!

وبالنسبة إليها ، فلقد كان الأمس عاصفاً ، اعتزلت الحياة والناس ، أرادت مواجهة كل شيء في أقصى مدى يمكن أن يصل إليه وفي أقسى صورة أيضاً . . . استقلت الأوتوبيس إلى حلوان ، وهناك انزوت على شاطىء النيل في ذلك الركن الذي كان اسمه « ركن فاروق » ثم أصبح مشاعاً للشعب يرتاده ويحتسي فيه القهوة والشاي . . . هنا كانت تلتقي بنبيل أحياناً . . . راحت تحملق في النيل وفي رأسها عراك صارخ ، مضت الساعات فإذا هي تواجه الأمر بافتراض أن نبيل قد خان بالفعل ، فهل يستحق حبها إذا ما فعل ؟! . . . قالت وهي تنهض سائرة على الشاطيء :

« فليذهب إلى الجحيم !! » .

أدركت وهي تجلس أمام أمها الآن على مائدة الافطار أن عادل مكي كان على حق عندما أجل اللقاء يوماً ، قررت إذا ما ذهبت إليه والتقت به أن تقص

عليه كل شيء بوضوح ، ما حدث فعلاً وما خامرها من شكوك وما لفت نظرها من تصرفات . . . هذا هو السبيل الوحيد للخلاص مما هي فيه !

« تحبي نوصلك بالعربية يا سامية ؟! » .

« لا يا ماما . . . أنا عاوزه أروح لوحدي ! » .

كانتا الآن وكأنهما تتكاشفان وتتفاهمان على كل شيء مما أعاد الحياة بينهما صافية قبل أن تغادر أمها البيت قبلتها في جبهتها هامسة :

« ربنا يحرسك يا بنتي ! » .

تأثرت سامية من دعاء أمها التي لم تكن قد تعودت أو عودتها على مثله ، غادرت البيت بعد دقائق واستقلت سيارة أجرة . . . وفي الموعد المحدد بالضبط ، كانت تجلس إلى عادل مكي !

« أولاً أنا عاوزه أعتذر من كل اللي حصل مني من ساعة ما جيت لك ! » .

« مفيش ما يدعو للإعتذار على الإطلاق ! » .

كان صوته جاداً ونبرته مستقيمة مما أكد أنه يعني ما قال تماماً .

« ودلوقت . . . حضرتك عاوزني أبدأ من الأول خالص ! » .

« إبدأي من أي حتة تحبي إنك تبدأي منها ! » .

ولقد اختارت سامية فهمي أن تبدأ قصتها منذ وصول أول خطاب أرسله نبيل من نابولي !

« لأني حاسه بشكل ما ، وما اعرفش ليه ، إن الجواب ده بالذات كان بداية مرحلة جديدة خالص ، مش في حياة نبيل بس . . . لكن كمان في علاقتي بيه ! » .

ابتسم عادل مكي وكانت ابتسامته نابعة من قلبه . . . بدت له سامية فهمي وكأن الآلام قد طهرتها فجاءها الإحساس من خلال وجدان يقظ . . . كما كان يعلم الآن علم اليقين ، إن هذه هي سامية فهمي التي انتظرها ، وعرف آراءها . . . فهل تكمل معه المشوار ؟!!

* * *

الفصل التاسع عشر

العودة منتصرًا !

بدأت سامية فهمي الحديث مع عادل مكي وكأنها تختزن ما لديها من معلومات تحت سطح محكم فتحته يد سحرية فراحت تتدفق بلا توقف كمن يريد التخلص من عبء يجثم على صدره ويقيّد حركته . . . قالت إنها ظنت عندما وصلها ذلك الخطاب الأول الذي أرسله إليها نبيل سالم من نابولي ، أنه ربما اضطر لإرساله بعد أن التقى بزينب درويش . . . فسألها عادل مكي في دهشة لم يحاول أن يخفيها بقدر ما حاول أن يظهرها :

« مين زينب درويش دي ؟! » .

« دي مندوبة إعلانات عندنا في المجلة ! » .

« وإزاي قابلت نبيل ؟! » .

« كانت مسافرة إيطاليا علشان تشتري عربية وقابلته هناك ! » .

« ليها نشاط سياسي ؟! » .

بدا لها السؤال غريباً غرابة اهتمام عادل مكي بأمرٍ كهذا ، فأحست سامية أنها أدلت إليه بمعلومة هامة ، ولذلك . . . فلقد راحت تستجلب ما حدث بدقة شديدة حتى تقدم له الصورة واضحة أشد ما يكون الوضوح . . . ولقد قالت لي سامية فهمي عن هذا اللقاء بالذات ، إنها استشعرت لأول مرة أهمية خاصة لتلك التفاصيل التي لا ننتبه لها عادة في حياتنا اليومية ، فإذا بها عند هؤلاء الناس تعني الكثير مما لا ندركه نحن . . . عادت بالذاكرة إلى الوراء قليلاً كي تقول إنها لا تعرف الكثير عن زينب درويش ، وهي لا تظن أن لها نشاطاً سياسياً بشكل أو بآخر ، لأنه لو كان الأمر كذلك لعرفته بداهة ، ولالتقت بها في الإتحاد

الاشتراكي أو حتى في اجتماعات الوحدة بالمؤسسة .

وعلى كلٍ . . . فالذي تذكره يقيناً أن قلقها على نبيل سالم في تلك الأيام ، وقبل لقائها بزينب درويش ، كان قد وصل إلى ذروته . . . لكنه ، وبالرغم من انشغالها الشديد في العمل السياسي ، خاصة بعد التحاقها بالمعهد العالي للدراسات الاشتراكية ، إلا أنها لم تستطع أن تمنع نفسها كل ليلة ، قبل أن تأوي إلى فراشها ، من التفكير في نبيل !

قالت سامية : إن ثقتها فيه لم تهتز حقاً . . . إلا أنها كامرأة أو فتاة لها طبيعة خاصة لا يمكن التغلب عليها أو تغييرها ، كانت تفكر فيما إذا كان نبيل قد وقع في حب فتاة أوروبية أنسته حبهما وعلاقتهما . . . وكلما مرت الأيام ، كان هذا الإحساس ينمو في صدرها ويتضخم مما أورثها نوعاً من الحزن اعتادت عليه واعتاد عليها ، بل ـ وهذا ما أدهشها أشد الدهشة ـ أنها استراحت إلى هذا الحزن وكأنه ملجأ وجدت فيه راحة افتقدتها كثيراً !!

هكذا كان حالها حين طلبت زينب درويش أن تراها . . . ولقد حدث هذا ذات صباح كانت تجلس فيه إلى مكتبها في المجلة عندما دق جرس التليفون ، ومن الطرف الآخر جاءها صوت الفتاة :

« أنا زينب يا أستاذة سامية ! » .

« زينب مين يا فندم ؟! » .

« زينب درويش اللي في الإعلانات ! » .

صاحت سامية معتذرة :

« أهلاً يا زينب . . . أنا ما عرفتش صوتك ! » .

« عندك وقت أشرب معاكي قهوة ؟! » .

بدا لها السؤال غريباً فلزمت الصمت لثوانٍ خاطفة لكنها لم تلبث أن هتفت :

« اتفضلي ! » .

ظنت سامية في البداية أن زينب سوف تطلب منها تحرير واحدة من تلك

الصفحات الإعلانية التي تظهر في الصحف والمجلات في صورة تحقيقات أو مقالات حول شركة من الشركات أو مؤسسة من المؤسسات . . . كانت سامية ـ في اجتماعات التنظيم الطليعي ـ قد اشتركت في مناقشة تلك القضية التي أثيرت فأثارت زوبعة من المناقشات انتهت بهزيمة ساحقة لهؤلاء الذين كانوا يبغون صحافة خالية من الشوائب . . . فلقد اعتاد بعض المحررين ـ رغبة منهم في زيادة دخلهم ـ كتابة تلك الصفحات الإعلانية نظير أجر تدفعه إعلانات المجلة . . . وكان هناك فريق يرى أن هذا قد يؤثر ـ ولو في المدى الطويل ـ على أداء المحرر نفسه ، خاصة وأن بعض الشركات المعلنة ـ وكان أغلبها شركات قطاع عام !!! ـ بدأت تطلب أسماء معينة لكتابة تلك الإعلانات ، وكان أصحاب هذا الرأي ، من الرافضين للمبدأ ، يطرحون فكرة الخوف من التناقض الذي قد ينشأ في رأس المحرر عندما يصبح عليه أن ينقد وضعاً في شركة ، وفي الوقت نفسه يكتب إعلاناً يتقاضى عن كتابته أجراً ، يمتدح كل أوضاع تلك الشركة ! . . . وكان هناك فريق آخر يرى أن الأمر لا غبار عليه ، وأن زيادة دخل المؤسسة بالإعلان ، ودخل المحرر بالأجر الحلال ، ليس جريمة ، بل واجب !! . . . وعلى كل الأحوال ، فلقد كانت المعركة في تلك الأيام حامية ومستعرة ، ولقد تصورت سامية فهمي ، أن زينب طلبت لقاءها كي تعرض عليها تحرير واحد من تلك الإعلانات نظير أجر معين . . . وبينها وبين نفسها ، فلقد ابتسمت في سخرية ، فهي تعرف أنها سترفض العرض مهما كان الأمر ، لأنها كانت من أشد أعضاء الفريق حماساً لوقف مثل هذا الهزل الذي قد يُحَوّل الصحفي من قاضٍ يحكم بما يراه عدلاً ، إلى منتفع قد تمنعه مصلحته ذات يوم من القيام بواجب . . . وعندما وصلت زينب ، بالغت سامية في الترحيب بها حتى لا تظن تلك الفتاة الطيبة الكادحة ، أن ثمة موقفاً شخصياً في الأمر !

غير أن المفاجأة هزت سامية حتى الأعماق عندما جلست الفتاة إلى جوارها ، وقبل أن تطلب القهوة الذي وعدتها به سألتها هامسة :

« إنتي تعرفي واحد اسمه نبيل ؟! » .

هتفت سامية وقلبها يخفق في عنف .

« نبيل سالم ؟! » .

« نبيل الجيزي ! » .

رددت سامية الاسم وراء زينب وقد بدت عليها خيبة الأمل :

« لأ ! » .

هكذا قالت ، لكنها عادت عندما أضاء ذهنها باسم عائلة نبيل ـ وكانت تعرفه طبعاً ـ تهتف :

« أيوه أيوه . . . هو نبيل سالم ، إنتي قابلتيه ؟! » .

« وسهرك معاه . . . وبيسلم عليكي ! » .

« سهرتي معاه فين ؟! » .

« في نابولي ! » .

« بس اللي أنا أعرفه ان نبيل في ألمانيا ! » .

« لأ . . ده في نابولي ، وسهرت معاه ليلة بحالها ، واتخانقنا ! » .

« ليه ؟! » .

« أصلي غلطت في حقه من غير قصد ! » .

وحكت لها زينب درويش قصة تلك الليلة التي سهرت فيها مع نبيل ، قالت إنها سعدت سعادة حقيقية لغضب نبيل الذي كان يحترم نفسه احتراماً واضحاً لدرجة أنه رفض منها مداعبة بريئة . . . قالت إن نبيل أنبأها أن سامية قريبته ، فانقبض قلب سامية متسائلة :

« هو قال لك كده ؟! » .

« طبعاً . . . هو قريبك بصحيح يا آنسة سامية ؟! » .

في ذلك اليوم أدركت سامية فهمي أن نبيل قد ابتعد عنها . . . ففي الوقت الذي كانت تعلن فيه للناس جميعاً أنها تحبه ، وأنهما مخطوبان . . . ينفصل هو ، في بلد بعيد عن مصر ، من هذا الحب !

غير أن سامية قد أحست ـ مع الحزن وخيبة الأمل ـ بسعادة خفية لأن نبيل

يحترم نفسه ولقد سألت زينب عن العمل الذي يمارسه في نابولي، فقالت الفتاة:

« بيشتغل في العربيات ، وكان ليلتها لسه ماسك شغل جديد ! » .

« هو اللي اشترى لك عربيتك ؟! » .

« هو عرض علي ده بعد ما اعتذرت له ، لكن أنا كنت اشتريت العربية خلاص ! » .

ثم مضت أيام ، ووصلها ذلك الخطاب الأول من نبيل الذي قال لها فيه إنه مرَّ بظروف صعبة ، وأن مرضاً قد ألَمّ به فلم يشأ أن يكتب لها حتى لا يشغلها بأمره أو مرضه ، وأنه اضطر إلى الرحيل جنوباً إلى إيطاليا حتى وجد عملاً مستقراً ومريحاً في نفس الوقت ، ثم راح يحدثها في خطابه هذا عن الأمل في المستقبل ، قال لها إنه يعمل في تجارة السيارات ـ هكذا لقنه أبو سليم قائلاً : « ليه تكذب ؟! » ـ وما هي إلا شهور قليلة حتى يستقل ويصبح سيد نفسه . . . وفي نهاية الخطاب كتب حاشية يقول فيها : « التقيت هنا بفتاة اسمها زينب درويش تعمل في الإعلانات عندكم ، قلت لها إنك قريبتي حتى لا أسبب لك أي نوع من الحرج ، إن كان هناك ما يدعو إلى هذا الحرج بعد غيبتي الطويلة !! » .

كان أبو سليم هو الذي أوحى إليه بكتابة هذه الحاشية بعد أن قص عليه نبيل عن تلك الليلة التي التقى فيها بزينب درويش . . . ولقد عاتبه الرجل إلى حد التعنيف على أنه لم يقل إن سامية خطيبته !

كانت تلك الحاشية سبباً من أسباب سعادة سامية التي دفعتها إلى الرد عليه بخطابها ذاك المشتعل بالحماس والأمل والثقة في المستقبل . . . وجاءت خطابات نبيل ـ التي تسلمها عادل مكي بالكامل ـ بعد ذلك ، موحية بالإشراق والتفاؤل والنجاح ، مما دفعها لأن تكتب له بانتظام . . . وعلى مدى شهور ثلاثة ، تبادلا الرسائل معاً بحماس وحب جعل من سامية ـ كما قالت ـ أسعد فتاة في الدنيا !

. . . . . .

. . . . . .

كان عادل مكي يستمع إلى سامية فهمي وقلبه يتمزق حقاً ، ففي تلك الأيام التي كانت تتحدث عنها ، كان يعرف يقيناً أن ثمة هدف يُوَجّه إليه نبيل سالم ، هدف بدا له غامضاً وإن كان متصلاً اتصالاً وثيقاً بتلك الممارسات الشيطانية التي كان يمارسها ذلك الشاب التعس في نابولي وكأنه يريد الانتقام من مجهول !

استطاع نبيل أن يصبح واحداً من أشهر سماسرة السيارات في نابولي ، وذاع صيته ، ليس بين المصريين في ذلك الميناء الإيطالي فحسب ، بل في مصر أيضاً . . . وما هي إلا بضعة أسابيع حتى كان العائدون بالسيارات من إيطاليا ، يرشدون الذين يزمعون السفر إلى هناك لاقتناء سيارة إلى نبيل سالم . . . كانوا يعطونهم رقم تليفونه وعنوان الجراج الذي يعمل به . . . والغريب في الأمر ، أن بعض هؤلاء العائدين ، كانوا يؤكدون ـ وهم يحكون عن نبيل ـ مما لاحظوه ورأوه بأنفسهم ، أنه إن لم يكن مالكاً لهذا الجراج الكبير ، فهو على الأقل شريكاً فيه !!

وفي خلال أربعة أسابيع أو خمسة ، استطاع نبيل أن يحقق للجراج رقماً قياسياً في المبيعات والأرباح لدرجة أدهشت ذلك السنيور اسكالكو صاحب الجراج . . . كانت مواهبه تفصح عن نفسها بوضوح ، وسرى اسمه بين المصريين وازداد عدد الباحثين والسائلين عنه . . . وكان لا بد والأمر كذلك ، أن تتطور علاقة نبيل بأبي سليم بسرعة . . . حتى جاء وقت كان يكفي أن يدلي فيه الرجل بملاحظة مجرد ملاحظة عابرة ، حتى يلتقطها هذا ، وقد استخفه النجاح ، وينفذها على أكمل وجه !!

ومن ثم . . . لم تعد العلاقة بينهما تحتاج إلى تورية أو لف أو دوران حول الأمور . . . أصبحت العلاقة واضحة تمام الوضوح . . . وما كان على نبيل إلا أن يلتقي بالمصريين والمصريات ، وأن يقوم بإنشاء علاقات تبدو حميمة مع الجميع . . . ثم ينقل أسماء الذين كان يلتقي بهم ، مع ما استطاع أن يحصل عليه من معلومات عن صاحب كل اسم ، حتى إذا طلب منه أبو سليم الاقتراب أكثر من صاحب اسم بعينه ، حتى يصبح صاحب هذا الاسم ، بين يوم وليلة ،

صديقاً حميماً لنبيل سالم الذي كان يؤدي له كل ما يريد من خدمات ، ويولم له الولائم ويصحبه إلى ما يبغي من سهرات ، كي يضع على نقاط ضعفه ، إن كان يشرب الخمر أو يعشق النساء أو يلعب الميسر ، أو . . . أو . . . إلى كل نقاط الضعف التي من الممكن أن تجعل السيطرة على فرد من الأفراد مسألة مستطاعة في أقل وقت ممكن !!

كان نبيل يفعل هذا بمهارة بالغة ، حتى إذا أصبح هذا الشخص ، من وجهة نظر أبي سليم ، جاهزاً . . . قدمه نبيل إليه على أنه تاجر سيارات ، قدمه إليه في سهرة ، أو ماخور ، أو في « برتيتة قمار » أو حتى بمصادفة في الطريق . . . فقط ، يقدمه لأبي سليم ويترك له الباقي ، مجرد تقديم ينسحب بعده نبيل ويختفي تماماً من حياة هذا الشخص !!

ولقد قال لي عادل مكي إن نبيل سالم في تلك الأيام ، كان تحت السيطرة الكاملة للمخابرات المصرية ، وإنهم كانوا يتابعون نشاطه بعين لا تغفل فلقد راحت خطورته تتزايد يوماً بعد يوم . . . ولقد أدهشه أكثر ، عدد هؤلاء الذين كان يوقعهم نبيل في براثن أبي سليم وكأنه تحول إلى متعهد أنفار ـ هذا تعبير عادل مكي بالتحديد ، ولعله أراد بهذا التعبير أن يوضح أن عدد الذين أوقعهم ، أو حاول نبيل أن يوقعهم ، في تلك الشبكة الجهنمية ، كان كبيراً !! ـ وبالرغم من ذلك ، لم تكن المخابرات المصرية بقادرة على توجيه أي نوع من أنواع الإتهام إلى نبيل ، فهو ـ أبداً ـ لم يشترك في مناقشة أو مساومة أو سهرة من تلك السهرات التي كانت تسحب هؤلاء الذين وقع عليهم اختيار المخابرات الإسرائيلية . . . أبداً لم يشترك ، وكان حريصاً كل الحرص ، على أن يظل بعيداً ، وأن تكون كل وظيفته ، هي تقديم الشخص المطلوب لأبي سليم أو واحد من أعوانه !

« قال لي عادل مكي إنه حتى هؤلاء الذين أبلغوا عما حدث عند عودتهم من إيطاليا ، لم يذكروا نبيلاً بسوء بل إنهم كانوا يذكرونه بالخير ، ويتحدثون عن خدماته التي أداها لهم بعرفان واضح !! » .

ولقد كانت نتيجة هذا النشاط الهائل الذي قام به نبيل . . . أن ارتفع

دخله ، وأصبح قادراً على الانتقال من مسكنه المتواضع إلى مسكن آخر في حي متوسط . . . فبعد أقل من شهرين ، انتقل نبيل إلى شقة مكونة من غرفتين في بناية تطل على حديقة صغيرة تتوسط ميداناً تتفجر في وسطه نافورة تتدفق مياهاً من فم تمثال لملاك يكاد يطير بجناحيه المنحوتين من الرخام الأبيض . . . وكان كلما قدم لأبي سليم شخصاً ، خصم هذا نسبة من الدين على ظهر الإيصال الذي وقعه نبيل . . . ولم تكن النسبة ثابتة ، بل كانت تتراوح فيما بين مائة دولار ، وخمسمائة حسب أهمية الشخص !

« ضحك عادل مكي وهو يحدثني عن تلك المرحلة في مرارة قائلاً : إن معنى هذا أن المخابرات الإسرائيلية لم تدفع نبيل إلى الخيانة فقط ، بل لم تكن تدفع له قرشاً نظير خيانته تلك . . . أي أنه كان يخون « ببلاش » ! . . . ثم عقّب على هذا الحديث بقوله : إن بعض الأغبياء من ضعاف النفوس يظنون أنهم إذا ما خانوا ، قبضوا ألوف الدولارات أو عشرات الألوف ، وهذا غير حقيقي بالمرة . . . وإذا كان اليهودي قادراً على ألا يدفع لك أجر ما تفعل ، فلماذا يدفع أصلاً !!! » .

بعد شهرين من ذلك التاريخ الذي بدأ نبيل العمل فيه في الجراج ، استطاع أن يتقن اللغة الإيطالية إلى درجة أدهشت « مارشيلا » ، تلك الفتاة الصارمة التي كانت علاقتها به ، نتيجة للاحتكاك اليومي في العمل وفي دروس اللغة ، تتوطد يوماً بعد يوم . . . وإذا كانت علاقته بالسنيور اسكالكو ـ صاحب الجراج ـ كانت علاقة عمل فقط ، فلقد كان الرجل ، مع سعادته الحقيقية بنبيل وما تفجرت عنه ملكاته ومواهبه وإمكانياته ، يحاسبه بأمانة شديدة ، يمنحه بين الحين والحين مكافآت لا بأس بها !

ودون شك ، كان نبيل هو الآخر في تلك الأيام سعيداً ، ذلك أن ما كان يحظى به من نجاح ، عاد يؤكد له قدرته على تخطي الصعاب ، ثم . . . إن عمله مع أبي سليم ، كان يجعله دائماً في دائرة الأمان . كان سعيداً لأن « مارشيلا » راحت تلعب معه دور « شيرلي هايمان » ، لكنه هذه المرة ، دخل إلى الحلبة مفتوح العينين ـ على حد قوله فيما بعد ! ـ وإذا كانت شيرلي هايمان قد أخبرته ذات يوم أنها يهودية وأنه مصري وأن قومه يحاربون قومها ، وإذا كانت

قد انتزعت منه وعداً بألا يشترك في هذه الحرب ، فلقد كان من المنطقي أن تكون هناك علاقة خفيت عنه بينها وبين أبي سليم !!

هكذا كان يفكر ، وهكذا كانت الافكار تروح وتجيء في بعض الأحيان في ذهنه مما دفعه ذات مرة لأن يسأل أبا سليم فجأة :

« إيه أخبار شيرلي هايمان يا بو سليم ؟! » .

« إيش عرفني ؟! » .

قالها أبو سليم بحدة مشفوعة بتلك النظرة المخيفة التي كانت لا تزال تبعث بالرعب إلى نفس نبيل ، فأدرك أن الحديث حول هذا الموضوع ممنوع تماماً ، فلم يعد إليه ، ولم يفكر فيه !

ودخلت مارشيلا حياة نبيل تدريجياً . . . فلقد كانت هي ـ على سبيل المثال ـ التي تنتقي له الملابس والألوان ، فأصبح واحداً من أشد الشبان أناقة في تلك الأوساط التي كان يؤمها المصريون في المدينة مما أضفى عليه نوعاً من الاحترام والاعجاب !

وعندما طلبت منه مارشيلا ذات ليلة تناولا فيها العشاء معاً ـ ولقد رآه بعض المصريين في تلك الليلة يقود سيارة صغيرة في شوارع نابولي وبجواره تلك الفتاة الرائعة الجمال فحسدوه وتحدثوا كثيراً عن إمكانياته ـ عندما طلبت منه أن يذهبا معاً إلى مسكنه ، سألها في مرح الحصيف :

« ولم لا نذهب إلى مسكنك أنت ؟! » .

ولم تمانع الفتاة ، لكن هذا لم يمنعها من أن تعلن دهشتها ـ التي تظن أنها كانت صادقة ، فليس من الطبيعي ، حتى ولو كانت تعمل لحساب أبي سليم ، أن تعرف شيئاً عن شيرلي هايمان وعن علاقتها بنبيل أو ما حدث له في آخر زيارة لها في بيته ـ ولقد أجاب نبيل سالم على تلك الدهشة وذلك التساؤل الذي كانت عينا تلك الفتاة الخضراوين تطلقه كسهام موجهة إلى عقله ، بأن طلب منها أن تغفر له ، فلقد مرَّ بتجربة جعلته يفكر ألف مرة قبل أن يدعو فتاة يحبها إلى بيته ؟!

« إذن فأنت تحبني ؟! » .

ووقع نبيل في الحيرة ، فاجأه السؤال فلم يكن في حقيقة الأمر يقصد إلى المعنى الذي التقطته مارشيلا واستخدمته ببراعة . . . ولم يكن نبيل في تلك الأيام يفكر في الحب خاصة بعد شكوكه تلك التي ثارت في رأسه حول شيرلي هايمان وعلاقتها بأبي سليم . . . أصبح الحب بالنسبة إليه عبئاً ليس هناك ما يدعو لأن يتحمله وهو يبني مستقبله وحياته . . . وعلى كلٍ ، فإن علاقة نبيل بمارشيلا كانت تختلف تماماً عن علاقته بشيرلي هايمان . . . كانت هذه علاقة يحكمها العقل بصرامة . . . ولذلك ، فلقد كان نبيل ، إذا ما استشعر ذلك الاقتراب المحسوس الذي كانت مارشيلا تتسلل به إلى حياته بعد أسابيع من التعالي والتغاضي والتجاهل ، ابتعد هو عنها محافظاً على نفس المسافة بينهما !!

. . . . . .

. . . . . .

كانت خطابات سامية تصل إليه الآن بانتظام ، وكان لا بد وأن تنتبه مارشيلا إليها ، وأن تسأله عنها . . . لكن أبو سليم بالقطع ، كان يقرأها !!

حتى كان يوم التقى فيه بأبي سليم ذلك اللقاء السري الذي وضع له رجل المخابرات الإسرائيلية خطة دقيقة . . . وما كاد الحوار يبدأ بينهما ، حتى أخرج نبيل خطاباً من جيبه قائلاً :

« الجواب ده وصلني النهار ده ! » .

« من سامية برضه ؟! » .

قال أبو سليم هذا وهو يتناول المظروف . . .

ـ ولقد كان الرجل قد طلب منه ألا يهمل خطاباً لسامية ، ومهما كان عدد خطاباتها ، فلا بد وأن يرد عليها ، بل إنه في بعض الأحيان ، وبعد قراءة الخطاب ، كان يملي عليه ما يجب أن يرد به . . . وكان نبيل يطيع دون مناقشة ، كان قد أدرك وبوضوح أن عليه أن يطيع ما يؤمر به بلا مناقشة . . . وفي

ذلك اليوم راح يرقب الرجل وهو يقرأ الخطاب المشتعل بالحب والأمل ، حتى إذا ما انتهى منه وطواه ، قال مغمغماً وكأن الفكرة طرأت على رأسه فجأة :

« أنت ما فكرتش تسافر مصر يا نبيل ؟! » .

فغر نبيل فاه دهشة وهو يحملق في الرجل لثوانٍ طالت دون رد .

« إيه ما لك ؟! » .

هكذا سأله الرجل ضاحكاً ضحكة خفيفة ، فهتف نبيل :

« إنت عاوز تخلص مني يا بو سليم ؟! » .

« إزاي وأنا ما اقدرش استغنى عنك ؟! » .

« إنت نسيت الأنتربول ؟! » .

ضم أبو سليم ما بين حاجبيه وكأنه يحاول أن يتذكر فقال نبيل غاضباً :

« إنت عاوز تفهمني إنك كنت ناسي ؟! » .

« لأ . . . مش كده ! » .

« أمال إزاي ؟! » .

« أنا مندهش لأني ما اديتكش خبر ! » .

« بإيه ؟! » .

« بأن الحكاية دي اتصفت وخلصت من كام أسبوع ! » .

مال عليه نبيل وقد اجتاحه مع الفرح استفزاز جعله يهتف من بين أسنانه :

« من كام أسبوع ومخبي عليَّ ؟! » .

اربد وجه أبي سليم وأطلقت عيناه تلك النظرة المخيفة وجاء صوته كحد السيف :

« أنا ما خبيتش عليك ، أنا نسيت ! » .

همَّ نبيل من مكانه مدمدماً :

« إللي زيك ما ينساش يا بو سليم ! » .

« أقعد ! »

همَّ نبيل بالحديث فزمجر الرجل :

« باقول لك أقعد !! » .

ولقد جلس نبيل ، جلس وقد تذكر الدين الذي كان عليه أن يسدده ، وجواز السفر المزور الذي كان يحمله ، وعمله الذي أصبح يدر عليه من الأرباح ما مكنه من حياته تلك ونجاحه ذاك !

« إنت نسيت نفسك والاَّ إيه ؟! » .

« أنا متأسف ! » .

قالها نبيل في انهيار مفاجىء فلم يرد الرجل وكان الغضب قد سيطر عليه ، فغمغم نبيل مستطرداً :

« أنا اعتذرت يا بو سليم وآديني باعتذر تاني ! » .

لم يرد أبو سليم ، فقط . . . مد يده إلى جيبه الداخلي كي يخرج جواز سفر نبيل الأصلي ثم يلقيه فيما بينهما فوق المائدة . . . امتدت يد نبيل كي تلتقط جواز السفر في دهشة ذاهلة :

« إيه ده » .

لم يرد عليه أبو سليم ، بينما راح يتصفح جواز السفر في فرحة طفل تاه طويلاً ثم وجد في النهاية أباه وأمه . . . بعد ثوان توقفت عيناه عند صفحة في الجواز ، كان هناك خاتم الجوازات الإيطالية تمنحه تأشيرة دخول في نفس اليوم الذي دخل فيه نبيل إلى إيطاليا .

« معقول ده ؟! » .

أرسلت عينا أبو سليم نظرة عتاب حادة ، فمال نبيل نحوه :

« حقيقي أنا باعتذر . . . أنا كنت متسرع ! » .

هوت الجملة على رأس نبيل كمطرقة جلبت له الدوار ، هاهو الرجل يعيد إليه جواز سفره كي يرفع عن كاهله عبئاً عانى منه ، ثم . . . ثم إنه أنهى موضوع الأنتربول الذي كان سيفاً مسلطاً على عنقه ، كان الرجل قد حوله في لحظة من

مطارد إلى إنسان شريف ، فكيف يخطىء في حقه ، وكيف يشك في صدقه ؟!

« لك حق تقول أي حاجة وتعمل أي حاجة . . . بس برضه أنا آسف ! » .

« وافرض إني قبلت اعتذارك ، أضمن منين إنك مش حاتتسرع تاني ؟! » .

« أوعدك بشرفي ؟! » .

« شرفك ؟!! » .

قالها أبو سليم في سخرية أحس بعدها نبيل أنه سوف يتقيأ أحشاءه . . . كان سؤالاً في كلمة واحدة اخترقت صدره كنصل حاد وكانت لها قوة التدمير ذاته . . .

« للدرجة دي إنت زعلان مني ؟! » .

« على العموم حاول ماتعملش كدة تاني وإلاّ . . . . . » .

قالها وصمت دون أن يكمل جملته ، فسقطت عينا نبيل إلى سطح المائدة وهويغمغم :

« ماشي كلامك يا بو سليم ! » .

« إحنا كنا في إيه ؟! » .

« كنت بتسألني إذا كانت مصر وحشتني ؟! » .

« بس انت ماردتش على السؤال ! » .

تردد نبيل قليلاً لكنه قال أخيراً :

« هي وحشتني . . . بس مش على طول ! » .

« مين اللي قال على طول ؟! » .

« يعني إيه ؟! » .

في كلمات واضحة محددة جاءته كلمات أبو سليم :

« مطلوب منك إنك تسافر مصر لمدة أسبوعين ! » .

« وحاعمل إيه هناك ؟! » .

« ولا حاجة خالص ! » .

« أمال حاسافر ليه ؟! » .

« تتفسح . . . تاخد إجازة بعد الشغل اللي انت عملته ! » .

« إجازة ؟! » .

« مش عاوز تشوف أهلك . . . وتشوف سامية ؟! » .

« سامية ؟! » .

قال نبيل سالم فيما بعد ، إنه أدرك بوضوح أن « سامية » هي الهدف وهي السر الكامن وراء هذا الطلب ، ولقد ساد الصمت بعد ذلك لثوانٍ قال بعدها أبو سليم :

« قلت إيه ؟! » .

« اللي تشوفه ! » .

« الباسبور التاني معاك ؟! » .

أخرج نبيل جواز سفره المزور وناوله لأبي سليم .

« قدامك ٤٨ ساعة تحضر نفسك فيهم ! » .

نظر نبيل إلى أبي سليم في توسل فسأله هذا :

« إيه ما لك ؟! » .

« تفتكر مفيش خطر من سفري ؟! » .

أطلق أبو سليم ضحكة جلجلت في المكان وبددت سحب الغضب المتجمعة .

« إنت لسه ما تعلمتش ؟! » .

« أبو سليم ! » .

« من يوم ما عرفتك ، فيه حاجة قلتها لك وطلعت غلط ؟! » .

« لأ . . . الحقيقة لأ ! » .

« ثم . . . إفرض أنهم سألوك في مصر ، حايسألوك على إيه ؟! » .

فكر نبيل قليلاً ، لم يكن في حاجة إلى تفكير ، فاستطرد الرجل :

« إنت اللي قلت بعضمة لسانك أول ما عرفت إنت حاتشتغل إيه ؟! » .

« وهم في مصر عاوزين إثبات علشان يمسكوني ؟! » .

« مفيش حد في مصر يعرف عنك حاجة غير إنك سمسار عربيات ! » .

هتف نبيل وكأنه يدافع عن نفسه :

« وهي دي الحقيقة !! » .

« طب ما تقول لنفسك ! » .

وهكذا انتهى الأمر . . . وكان لا بد من الانصراف ، لكن أبو سليم استطرد :

« ما تنساش الهدايا ! » .

كانت الجملة مغموسة في حنان جعل نبيل يهتف :

« هدايا ؟! » .

مد الرجل يده في جيبه وأخرج مجموعة من أوراق النقد قدمها لنبيل وهو يقول :

« مش ممكن تدخل على بابا وماما بعد الغيبة دي كلها وإيدك فاضية ! » .

تناول نبيل النقود دهشاً ، فعاد أبو سليم مردفاً :

« وسامية ! » .

هزَّ نبيل رأسه إيجاباً وكأنه يقول : « أنا عارف ! » . . .

« المفروض إنك راجع منتصر ، ناجح ، وكسبان ، ومعاك فلوس ! » .

وكان في هذه الجملة فصل الخطاب ، فلقد نهض نبيل وصافح أبا سليم في حرارة ، وعقله يطير إلى مصر ، فقط . . . كي يرى كيف يكون موقف الجميع منه ، إذا ما عاد منتصراً !

* * *

الفصل العشرون

الزيارة !

كانت الساعة قد أشرفت على الثانية بعد الظهر وسامية تحكي بلا توقف ، كانت مثل مرجل يغلي بما تراكم في جوفه من بخار ، حتى إذا ما وجد منفذاً ، انطلق البخار منه في اندفاع وقوة . . . ولقد قالت لي سامية إن تلك ساعات كانت شاقة بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، فمع إحساسها بالراحة الشديدة كلما حكت وأوغلت فيما حدث ، وكأنها ترفع عن كاهلها عبئاً حملته طويلاً حتى قصم الظهر منها ، كان إحساسها بالعذاب يتضاعف . . . فلقد كانت كل كلمة تتفوه بها ، تقربها من ذلك المجهول ، من ذلك الكابوس الذي حَوّل حياتها إلى جحيم ، تقربها من حقيقة قاومت طويلاً ، وكأنها تريد أن تلوي ذراع القدر ، كي تهرب منها . . . فهل كانت في ذلك الوقت تشعر بأن نبيل سالم خائن بالفعل ؟!!

توقفت عن الحديث للحظات أرادت فيها أن تلتقط أنفاسها ، فضحك عادل مكي قائلاً :

« الحمد لله على السلامة يا سامية ! » .

رفعت حاجبيها دهشة لذلك التعبير الذي وجدته غريباً ، فأردف عادل :

« أصلي استنيتك كثير قوي ! » .

أدركت سامية مقصده ، فتساءلت فيما بينها وبين نفسها : أإلى هذا الحد كانت غائبة وسط مخاوفها وأحزانها ؟!

تنهدت في حرارة وهي تغمغم :

« أصلي تعبت يا سيد عادل ! » .

« وما كانش ممكن ترتاحي إلاّ إذا اتكلمتي وقلتي ووقفتي قدام الحقيقة مهما كانت ! » .

كان فيما قال إيحاء لم يخف عليها ، فقالت وهي تخفض البصر :

« الغريبة إني كنت عارفه ده من الأول ! » .

قالت هذا ثم عادت تحكي من جديد ، كما راح عادل مكي يستمع ويتذكر ويربط فيما بين الأحداث فإذا قطع الصورة المتناثرة تتجمع ، وإذا الحقائق تُسْفِرُ عن نفسها !!

* * *

في خلال ثماني وأربعين ساعة ، كان كل شيء جاهزاً كي يطير نبيل سالم إلى القاهرة . . . وفي صبيحة يوم السفر التقى به أبو سليم وكان يبدو عليه المرح والسعادة . . . لكن نبيل بادره فجأة :

« أنا عاوز أعرف يا بو سليم إيه اللي مطلوب مني بالضبط ! » .

رد أبو سليم على سؤاله في بساطة قائلاً :

« ولا حاجة . . . عاوزينك تتفسح وتشوف أهلك وحبايبك ! » .

لزم نبيل الصمت مستغرقاً في التفكير وفي النظر إلى الرجل وقد استبدت به الحيرة . . . ذلك أنه ـ طوال اليومين اللذين انقضيا منذ لقائه الأخير مع أبي سليم ـ كان يضرب أخماساً في أسداس في محاولة لمعرفة الغرض الحقيقي من ذلك الذي طلبوه منه بالسفر إلى مصر . . . كان خائفاً متوتراً بالطبع ، لكنه بالرغم من خوفه هذا الذي يتزايد كلما اقترب موعد السفر ، وتوتره ذاك الذي كان يمزق أعصابه تمزيقاً . . . كان يعلم علم اليقين أنه سوف يسافر ما داموا قد طلبوا منه السفر حتى ولو أدى ذلك إلى ما لا تحمد عقباه . . . ولقد انتابه إحساس غامر بأنه مسوق إلى قدر لا فكاك منه ، فهو لا يستطيع أن يرفض أو يتمرد ، وعندما أمعن النظر في موقفه ، تأكد أنه قد أصبح مقيداً إلى عجلة جهنمية كانت تدور به ماضية إلى حيث لا يدري . . . ولقد أجهد نفسه في

التفكير ، فلم يجد سبباً لسفره سوى « سامية فهمي » ! . . . فماذا يريدون منه أن يفعل بها أو معها ؟!!

كان نبيل يعرف أن الرجل كاذب في أنهم يريدون له إجازة لزيارة الأهل والأحباب ، وأنه يناور كي يصل به عبر الحوار ـ وكما هي عادته ـ إلى الهدف من وراء سفره . . . فمنذ البداية ، البداية التي تبدو له اليوم بعيدة بُعْدَ قرون سحيقة ، كان يدهشه أشد الدهشة إصرار أبو سليم ، بل وإلحاحه ، كي يبقى على علاقته بسامية ، وألاّ يقطع خيوط الود معها . . . منذ أن التقى به ذات مساء فيما ظنه مصادفة في إحدى حانات هامبورج بألمانيا الغربية ـ ثم وهو غارق لأذنيه في حب شيرلي هايمان ، وحتى بعد وصوله إلى إيطاليا ، وبصرف النظر عن علاقته بمارشيلا ، ولا شيء يعني هذا الرجل عن علاقاته مع الناس في مصر ، إلاّ علاقته بسامية فهمي . . . حدث هذا قبل أن يصارحه بالحقيقة ، وبعد أن صارحه أيضاً ! . . . ولذلك ، ولأنه كان متوتراً إلى حد الاختناق ، فلقد قرر ـ لضيق الوقت وحاجته إلى الأمور واضحة جلية ـ أن يختصر الطريق ، وأن يوفر على أبي سليم مناورته ، وأن يواجه الأمر مواجهة لا غموض فيها . . . فقال في محاولة للتخابث :

« تفتكر سامية ممكن تنفعنا في حاجة يا بو سليم ؟! » .

ابتسم أبو سليم استخفافاً ، نظر إلى نبيل نظرة من يقول له : « إلعب غيرها ! » . . . ولكن سرعان ما تبدلت نظرته فكأنه فوجيء بالسؤال ، فتساءل بدوره :

« إنت رأيك إيه ؟! » .

« ما اعرفش . . . إنت اللي تقول ! » .

صمت أبو سليم لثوانٍ وكأنه يفكر في أمر طرأ عليه ، ثم قال :

« على العموم ما يضرش إنك تعرف إيه اللي جد في حياتها !! » .

نظر نبيل إليه نظرة مفعمة بالتساؤل فأردف الرجل :

« إنت عارف طبعاً إن الصحفيين بيعرفوا حاجات غير اللي بتنشر في الجرائد ! » .

همّ نبيل بالحديث فأضاف الرجل منذراً :

« من غير ما تسألها بشكل مباشر ، ولا تخليها تحس بأنك حتى عاوز تعرف حاجة ! » .

« ما تخافش عليّ ! » .

نهض أبو سليم سائراً في الغرفة وهو يهتف معترضاً :

« لا يا حبيبي أنا لازم أخاف عليك ! » .

قال هذا وهو يلتفت نحو نبيل وكأنه يتمعن رد فعل جملته عليه ، وعندما اطمأن إلى أن سهمه قد أصاب من الشاب هدفه ، أضاف باسماً :

« خصوصاً إن سامية بتحبك ، وعارفاك كويس ! » .

« قلت لك ما تخافش عليّ ولا تنعاش هَم المسألة دي ! » .

« طب إزاي ؟! » .

« لأن سامية حاتقول لي على كل حاجة من غير ما أسألها ! » .

قال نبيل هذا فساد الصمت وكأن في قوله فصل الخطاب ، لكن أبو سليم عاد يتشكك في مقدرة نبيل محذراً وموحياً في نفس الوقت :

« لما كنت بتغلط هنا ، أو في أي حته في الدنيا ، كنت باقدر أعمل لك حاجة . . . إنما في مصر ، مش حاقدر أعمل حاجة . . . مش حايبقى في إيدي إني أعمل حاجة . . . خصوصاً أننا دلوقت ما نقدرش نستغنى عنك ! » .

ولقد عزفت الجملة الأخيرة على ذلك الوتر الحساس الذي يشعل الحماس في صدر نبيل ، فدافع عن منطقه بحرارة قائلاً :

« لاحظ إن سامية بتحبني وبتخطط من زمان إننا نتجوز ؟! » .

« طب وما له ! » .

« إيه ؟! » .

هكذا صرخ نبيل متسائلاً ، كان قد أدرك بعد ثوانٍ من الحوار أن الرجل قد تسلم مقود المناقشة وراح يوجهها كيف يشاء ويوجهه كيف يشاء . . . لم يرد أبو سليم على صرخته فعاد يهتف :

« يعني أتجوزها يا بو سليم ؟! » .

« أنا ما قلتش كده ! » .

« أمال قلت إيه ؟! » .

« قلت إن من حقها تفكر في الجواز ، لكن إنت من حقك إنك تأجل المسائل لحد ما تبني مستقبلك في بلد غريب ! » .

ساد الصمت بينهما وقد هدأ نبيل مستسلماً لهذا الرجل الذي كان يملك حلاً لكل مشكلة وتفسيراً لكل غموض ، ساد الصمت بينهما لكن عيونهما راحت تتحاور وكان كَل منهما قد استغرق فيما كان يفكر فيه . . . ولقد مرت لحظات ، ثم ، وكأن أبو سليم وجد الحل ، فلقد هتف :

« هي عندها عربية ؟! » .

« لأ طبعاً ! » .

« مش يمكن تكون اشترت عربية في الستين اللي فاتوا ؟! » .

كانت الرسالة التي يريد أبو سليم أن يوصلها إليه ، تسفر عن نفسها تدريجياً ، فتعجل نبيل الأمر وهو يتساءل متقدماً نحوه :

« إنت بتفكر في إيه يا بو سليم ؟! » .

« أنا ما بافكرش ، هي اللي لازم حاتفكر !! » .

« في إيه ؟! » .

تَحَوّل نبيل إلى كرة يتقاذفها الرجل في كل اتجاه .

« أصل مش معقول تبقى إنت بتشتغل في العربيات ، وبتساعد كل المصريين اللي بيلجأوا لك ، وتيجي لحد حبيبة القلب ولا تساعدهاش ! » .

« سامية مش حاتطلب ده ! » .

« يبقى إنت تفتح لها الباب ، وتخليها تطلب ! » .

« سامية ما يهمهاش أن يبقى عندها عربية ! » .

« مين اللي قال ؟! » .

جاءه السؤال هذه المرة حاسماً قاطعاً فلزم الصمت ! .

وعلى كل . . . فلقد كان في هذا الكفاية حتى يفهم نبيل كل شيء ، ولم يعد هناك ما يمكن أن يقال ، أدرك في لحظة أن تخمينه قد أصاب ، فالغرض الرئيسي من سفره إلى مصر قد اتضح بما لا يقبل شكاً أو تأويلاً . . . ولقد قال نبيل فيما بعد ، إنه أحس بقلبه ينقض ، كان الذي يريدونه منه هو آخر ما كان يمكن أن يفكر فيه . . . فأطرق دون جواب ولزم الصمت ، حتى إذا تظاهر أبو سليم بأنه يستعد للإنصراف ، قال :

« حد يعرف إنك مسافر ؟! » .

« مفيش غير سنيور اسكالكو ومارشيلا ! » .

« قلت لهم إنت مسافر فين ؟! » .

ضحك نبيل قائلاً :

« مش أنا اللي قلت ، اسكالكو هو اللي قال لي إن فيه صفقة عربيات في روما ، وطلب مني أروح أعاينها ، ولو كانت كويسة ممكن أتفق عليها ! » .

« وبعدين ؟! » .

« ولا قبلين . . . صرف لي بدل سفر لمدة عشرة أيام ، وقال لي إن الصفقة مهمة جداً ولازم آخد وقتي في الدراسة ولا استعجلشي ، وإن لي نسبة محترمة لو الصفقة تمت بسعر كويس ! » .

« وإنت قلت له إيه ؟! » .

هتف نبيل ضيقاً بالأمر وقال :

« ما قلتش حاجة ، إنما فهمت ! » .

« فهمت إيه ؟! » .

كانت أسئلة الرجل الآن صارمة ، وكان وكأنه أستاذ وضع تلميذه في إمتحان

عسير ، أُرْتِجَ على نبيل ووقع في الحيرة لكنه غمغم :

« فهمت إنه عارف إني مسافر وإن . . . . . » .

قاطعة الرجل في حزم :

« تبقى ما فهمتش حاجة ! » .

« إزاي ؟! » .

« لأن فيه بالفعل صفقة عربيات في روما ! » .

أدرك نبيل على الفور ما كان يقصد إليه الرجل فهاله ذكاؤه ووقف واجماً ، وعاد الرجل إلى الحديث :

« وبالفعل ، السنيور اسكالكو حاطط أمل كبير على الصفقة دي ! » .

« طب وبعدين يا بو سليم ؟! » .

نظر إليه أبو سليم نظرة استفسار ، فتقدم منه نبيل موضحاً سؤاله :

« لما أرجع حاقول له إيه عن العربيات دي ؟! » .

« لما ترجع حاتلقى الدراسة جاهزة وكل شيء تمام . . . ومش حايبقى فاضل ، غير إنك تعاين العربيات في كام ساعة ، وترجع نابولي وفي إيدك العقد ! » .

قال أبو سليم هذا وهو ينهض كي ينصرف وكأن هذا هو آخر ما أراده من نبيل ، كان الآن موقناً أشد ما يكون اليقين أن نبيل قد ارتبط به ارتباطاً لا ينفصم ، اقترب منه في حنان وهو يربت على كتفه متسائلاً :

« معاك فلوس كفاية ؟! » .

« معايا ! » .

في صوت مفعم بالتأثر قال :

« ما تتأخرش عن أسبوعين يا نبيل ، لاحظ إننا محتاجين لك هنا جداً ! » .

وكانت تلك معزوفة أخرى على ذلك الوتر الذي يمس شغاف قلب نبيل

بشدة ، فامتلأت نفسه بالرضا والحماس !

* * *

قال لي عادل مكي إنه كان في انتظار نبيل سالم في مطار القاهرة الدولي في ذلك اليوم من أيام الشتاء المبكر لعام ١٩٦٨ ، وإنه رآه بعينه وهو يهبط من الطائرة وينفذ من الجوازات والجمارك دون أن يستطيع معه أو له شيئاً . . . قال لي إنه كان موقناً في ذلك الوقت يقيناً مطلقاً ، أن نبيل خائن ، وأنه يعمل لحساب المخابرات الاسرائيلية ضد بلاده . . . لكنه بالرغم من ذلك ، لم يكن يملك دليلاً واحداً يدينه . . . وحتى ذلك اليوم ، لم يكن نبيل يقوم بعمل غير مشروع ، كان يعمل سمساراً للسيارات ، وكان أبو سليم يظهر في الصورة كسمسار للسيارات ، فإذا ما كان معه أحد ، قدمه إليه ، ثم انصرف دون أن يعلم عنه شيئاً . . . كان حرص نبيل الشديد وتخطيط أبي سليم قد جعلا المهمة شبه مستحيلة . . .

وعندما سألته باسماً : ألم يكن يستطيع القبض عليه دون حاجة إلى دليل ؟! . . . أطلت من عينيه نظرة عتاب صارخ وكأنه يقول : « حتى إنت ؟! » . . . لكنه بدا وكأنه يبتلع عتابه وضيقه بالأمر كله ، ثم زفر زفرة حارة وهو يعتدل في جلسته مواجهاً إياي :

« فيه فرق بين الاعتقال وبين القبض على مواطن على ذمة قضية ! » .

كان جوابه مباشراً ، كما كان أيضاً جواباً صارخاً . . . ولست أنكر أني أحسست بالخجل لسؤالي ذاك ، غير أني بالرغم من هذا كابرت هاتفاً في حماس :

« إذا كان إنسان خطر بالشكل ده ، ليه ما تعتقلوش ؟! » .

« الاعتقال له أسباب ! » .

« والأسباب كانت جاهزة وموجودة ! » .

« بس مفيش تهم قانونية نقدمه بيها للمحاكمة ! » .

في تلك الأيام . . . لم أكن قد فهمت الكثير مما كان لا بد أن يُفهم ويُعرف . . . لم أكن قد فهمت أنه في مثل هذا الحقل من النشاط الإنساني ، لا يصبح « شخص » نبيل سالم هو الهدف ، لكن الهدف كان أبعد وأخطر ،

وأهم . . . لم أكن قد فهمت أن الهدف هنا هو « الشبكة » التي كان أبو سليم يديرها في أوروبا ببراعة . . . وإذا كان نبيل قد قاد عادل إلى مركز نشاط أبي سليم الجديد، فإن أبا سليم سوف يقوده إلى غيره من الأعوان والعملاء والرجال وربما إلى فروع أخرى للشبكة ، أو ، شبكات أخرى تعمل في مجالات مختلفة . . . لم يكن نبيل إذن سوى فرد واحد في هذه المنظمة الشيطانية . . . وكان القبض عليه أو اعتقاله ، محكوماً بظروف وحسابات شديدة التعقيد ، كما كان القبض عليه في ذلك الوقت بالذات ، كفيل بأن يوقف نشاط الشبكة لفترة قد تتغير فيها الوجوه والأساليب فيسود الظلام مرة أخرى ويصبح على عادل مكي أن يبذل نفس الجهد من جديد . . . ويبدو أن سؤالي قد أثار كوامن عديدة في صدر الرجل ، فلقد عاد إلى الحديث مرة أخرى :

« وافرض إننا اعتقلناه ، حانعتقله قد إيه ؟! » .

حاولت الإعتذار لكنه أردف :

« ثم إن المفروض إنك لما تقبض على مواطن بأي تهمة ، إنك تقدمه للقضاء ! » .

لزمت الصمت تماماً ورحت استمع :

« تهمة التجسس لحساب دولة معادية تهمة مش سهلة ، ومش صغيرة ، وعار من الصعب أننا نمحيه مهما عملنا . . . وأضرارها ـ على المستوى الاجتماعي ـ مش حاتصيب الشخص لوحده ، لكن ممكن ـ وبمكن بالتأكيد ـ حاتصيب ناس مالهمش أي ذنب ! » .

أشعل عادل سيجارة نفث دخانها في عنف وهو يستطرد :

« فيه هناك أبوه ، وأمه ، وأخواته ، وأصحابه ، وجيرانه ، وزمايله ، وقرايبه . . . و . . . وفي حالة نبيل سالم ، عندك فكرة أبوه ، الراجل الطيب المسالم الوطني ده لما عرف إن ابنه بيتخابر مع دولة أجنبية للإضرار بمصالح الوطن ، جرى له إيه ؟! » .

كان صوته الآن مفعماً بالإنفعال ، دق فوق المائدة التي تتوسطنا بإصبعه وهو يقول :

« علشان كده لازم يبقى فيه دليل ، ودليل قاطع ودامغ وما يقبلش المناقشة . . . وأهمية الدليل ده ، مش في إقناع القاضي بس ، بل أهميته إن أي متهم يواجه باللي عمله في لحظة هو مش منتظرها ، بيعترف على طول . . . لأنه بيحس إنه كان عايش في أكذوبة ! » .

كانت مرارة الحديث قد بلغت ذروتها عندما قال عادل :

« يا إما كده ، يا إما حياة الناس تبقى مباحة !! » .

ثم ، وكأنه يختم حديثه أردف :

« وفي حالة نبيل سالم ، كنا حانقدمه للقضاء بتهمة إيه ومفيش دليل واحد يدينه ! » .

. . . . . .

. . . . . .

عندما خطا إلى مبنى المطار لم يتلفت حوله ولم يأت تصرفاً واحداً ينبىء عن ذلك القلق الذي كان ينخر عظامه . . . بدا نبيل سالم في تلك الليلة وهو يخطو إلى مبنى المطار خطوات طبيعية ثابتة ، مدرباً تماماً . . . واعياً لما يجب عليه أن يفعل وألاَّ يفعل . . . غير أنه ، على الوجه الآخر ، بدا له كل شيء في المطار طبيعياً إلى أقصى درجة . . . فازدادت ثقته في نفسه ، واندفع ينهي إجراءات خروجه !

وهكذا . . . ومنذ اللحظات الأولى لوصول نبيل سالم إلى مطار القاهرة الدولي ، والذي كان يسوده في تلك الأيام ، كما يسود القاهرة ، الظلام نسبياً . . . أحس هذا الشاب أن أبا سليم ـ مرة أخرى ـ كان على حق في كل ما قال . . . بل إن نظرته الأولى إلى المدينة التي تركها مشتعلة بالأضواء متفجرة بالحيوية والنشاط ، أصابته بما يشبه الانقباض . . . كان آتياً من بلاد تشتعل مدنها بالحياة والحركة ليل نهار ، كما كان قد غادر القاهرة وهي في ذروة تألقها

وانبعاث الحياة فيها ومنها . . . وهو ، عندما سمع ما سمع عن الحرب والهزيمة ، لم يتصور ، ولم يخطر بباله أنه سوف يرى ما رآه أمام عينيه منذ لحظة هبوطه من الطائرة . . . غير أنه ، ومع مرور الوقت ، تحول انقباضه هذا إلى ما يشبه الاستخفاف . . . كانت الطائرة قد وصلت قبل منتصف الليل بقليل .

. . . . . .

. . . . . .

في تلك الليلة نفسها ، وما كادت طائرة نبيل تقلع من مطار روما ، حتى بُثَّتْ برقية عاجلة إلى القاهرة . . . وفي حقيقة الأمر ـ هكذا اعترف لي عادل مكي ـ فإن أبا سليم كان موفقاً إلى حد كبير في إخفاء سفر نبيل . . . لا لشكه في أن نبيلاً كان مراقباً ، بل زيادة في الحيطة لا أكثر ولا أقل !

ذلك أن نبيل سالم لم يغادر نابولي طوال اليومين اللذين سبقا سفره إلى مصر . . . بل إنه راح يمارس حياته ، سواء بالنسبة للجراج ، أو مع مارشيلا ، أو في سعيه في أماكن تجمع المصريين ، بشكل طبيعي تماماً ولا يوحي بأي شيء . . . لم يغادر نبيل نابولي إلا قبيل إقلاع الطائرة بساعات قليلة ، حيث ركب القطار المتجه إلى روما ـ وكان هذا أمراً طبيعياً للغاية ولا يلفت النظر ، فلقد تعود نبيل بين الحين والآخر ، حسب توجيهات أبو سليم ، أن يسافر إلى روما لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ، وفي العطلة كان يتعرف على معالم المدينة ، كما كان يتعرف على أماكن تجمعات المصريين أو العرب . . . كان سفره إلى روما إذن مسألة لا تلفت النظر ، لكنه هذه المرة ، عندما وصل إلى محطة سكة حديد روما بكل اتساعها وضوضائها وزحامها ، لم يستقل سيارة أجرة إلى حيث البنسيون الذي تعود النزول فيه ، بل استقل السيارة من المحطة ، إلى المطار مباشرة !

ولم يكن هذا هو الخطأ الذي وقع فيه أبو سليم ـ وبالتالي نبيل سالم ! ـ ذلك الذي نبه عادل مكي ـ وهو في القاهرة ـ إلى أن نبيل سالم في الطريق إلى مصر !!

كان كل شيء مدبراً ومحكماً ولا يلفت النظر ، لولا أن الرجال - في نابولي - لاحظوا ، خلال اليومين اللذين سبقا السفر أن نبيل راح يشتري مجموعة من الهدايا الغريبة ، كان - مثلاً - يشتري ملابس تليق برجل في الخامسة والخمسين وسيدة في الخمسين . . . ولقد لوحظ أنه كان حريصاً على شراء تلك الأشياء بسرعة وعجلة شأن من كان يقوم بواجب ثقيل . . . ولعب الفأر في عب الرجال الذين كانوا يعرفون كل علاقاته ، بل كل شيء عنه . . . حتى إذا غادر بيته حاملاً حقيبة ملابس أكبر قليلاً من تلك التي كان يحملها عادة في زياراته لروما . . . تكاثرت علامات الاستفهام ، وما أن تحرك القطار من محطة نابولي ، حتى أجريت مكالمة سريعة ، من نفس محطة السكة الحديد ، إلى مكان ما في روما . . . ولذلك ، فإن نبيل لم يلحظ أن هناك من كان في استقباله في محطة سكة حديد روما ، ومن تبعه منها ، ولازمه في المطار حتى صعد إلى الطائرة المقلعة إلى القاهرة . . . وما كادت تلك الطائرة تحلق في الجو ، حتى بُثّت تلك البرقية التي وصلت إلى عادل مكي قبل وصول الطائر بساعة واحدة . . . وكان عادل في ذلك الوقت يستعد لدخول فراشه عندما دوّ جرس التليفون في بيته ، رفع السماعة ووضعها فوق أذنه ، استمع إلى محدث في انتباه ، ولم تطل المكالمة لأكثر من خمس عشر ثانية ، بدل بعدها ملابسه ، وغادر البيت إلى المطار مباشرة !

وهناك ، كان رجاله قد سبقوه ، وكانوا جميعاً ، في استقبال نبيل سالم !!!

* * *

عندما قدم نبيل جواز سفره إلى ضابط الجوازات ، قَلّب هذا في الصفحات قليلاً ، ثم وضع خاتم الوصول فوق إحدى صفحات الجواز ، ثم أعاده إلى نبيل في تكاسل وهو يغمغم :

« **الحمد لله على السلامة يا سيد نبيل !** » .

وكان تفتيش الحقيبة في الجمارك روتينياً ، قلب رجل الجمارك محتويات الحقيبة وهو يتثاءب ، ثم لوح بذراعه لنبيل طالباً منه الانصراف إلى حال سبيله .

خرج هذا إلى ساحة المطار فإذا الظلام يسود الدنيا ، تكالب عليه ثلاثة من سائقي سيارات الأجرة ، فاختار أحدهم وألقى بنفسه في السيارة وهو يتنفس الصعداء . . . عندما غادر السيارة أمام باب البيت ، تلفت حوله ، وكان الشارع خالياً تماماً من المارة ، والمحلات قد أغلقت أبوابها . . . رفع رأسه إلى أعلا نحو نوافذ البيت . . . وكان كل شيء غارق في الظلام !

في التفاتة طبيعية ، تبدو وكأنها غير مقصودة بالمرة ، ألقى نبيل ببصره إلى حيث ناصية الشارع وما وراءها . . . ولم يلحظ شيئاً غريباً ، بل كان كل شيء هاجعاً في سكون الليل ، وكأن أحداً لا يشعر به !

* * *

حتى مطلع النهار لم ينم نبيل . . . كانت فرحة والديه به لا توصف ، كما كانت المفاجأة وراء كل تصورهما . . . أغرقه ترحابهما وحنانهما في بحر من الدهشة ، وكأن تلك الخلافات والتوترات التي كانت سمة العلاقة بينه وبين أبيه لم تكن . . . بل المذهل في الأمر ، أن الرجل بدا سعيداً بعودة ولده سعادة لا توصف ، وفقد سيطرته على نفسه إلى الحد الذي دفعه لأن يعد لولده كوب شاي بيديه تعبيراً عن فرحته . . . وعندما فتح نبيل حقيبته كي يقدم لكل منهما هداياه ، كان هو أول من اكتشف أنه بالغ إلى حد كبير ، ليس في انتقاء الهدايا فقط ، بل في كميتها وتنوعها . . . وعندما قدم لوالده تلك البذلة الفاخرة التي اشتراها له ، قال الرجل بصوت مرتجف :

« **بدلة إيه يا بني . . . رجوعك بالسلامة هو هديتك لي !** » .

هتف نبيل :

« **رجوعي إيه يا بابا . . . دانا جاي في أجازة !** » .

قال نبيل سالم فيما بعد ، إنه لن ينسى حتى آخر لحظة في عمره ، ذلك التعبير الصارخ بخيبة الأمل الذي اجتاح ملامح أبيه اجتياحاً ، بدا الرجل مغلوباً على أمره وهو يردد :

« **أجازة ؟! . . . حاتسافر تاني يا نبيل ؟!** » .

لم يكن نبيل قد تعود من أبيه مثل هذا الحب وهذا الحنان أو الاهتمام ، فراح يستحلب طعم النجاح والانتصار في نشوة عارمة ، وأخذ يرقب انبهار أبيه وأمه بما جلبه لهما من هدايا ، بينما كانت أمه تغمر وجهه بالقبلات بين الحين والحين ودموعها لا تكف . . . جلس بينهما وراح يقص عليهما قصة « كفاحه » في ألمانيا ثم في إيطاليا ، وكانا يستمعان إليه بكل جوارحهما وقد شُدَّتْ إليه عيونهما شداً . . . ذات لحظة سأل نبيل أباه متحسساً طريقه :

« وإنتو أخباركم هنا إيه يا بابا ؟! » .

« قاعدين مستنيينك ! » .

هوت الجملة فوق رأسه كمطرقة ، حاول الخروج من المأزق الذي أوقعه فيه أبوه ، فصاح مستطرداً :

« أنا مش قصدي أنتم ، أنا قصدي البلد ! » .

« طبعاً سمعت اللي حصل ! » .

« أنا مش سمعته بس ، وأنا شفته في التلفزيون ! » .

نهض الأب لبعض شأنه وكأنه لا يريد الخوض في الموضوع وهو يردد :

« ربنا يلطف بينا . . . ربنا يلطف بينا !! » .

ولم يخض نبيل في الحديث لأبْعَدَ من هذا ، كانت هذه تعليمات أبو سليم ، أن يظل على شاطيء المناقشة مهما كان الأمر حتى لا يلفت النظر إلى شيء . . . وما هي إلاّ ساعة وبعض الساعة حتى نهض إلى فراشه الذي أعدته له أمه على عجل ، قال : إنه متعب من الرحلة ، وفي حاجة إلى الراحة !!

. . . . . .

. . . . . .

في الصباح ، كانت الساعة تشير إلى الثامنة عندما دخلت عليه أمه بكوب الشاي والتليفون معاً . . . كان قد طلب منها أن توقظه مبكراً حتى يستطيع الاتصال بسامية قبل ذهابها إلى المجلة ، وضعت كوب الشاي إلى جواره ثم انسحبت في اللحظة نفسها التي رفع فيها سماعة التليفون يدير القرص ، في

لحظة . . . أحس بالشوق يجتاحه اجتياحاً إلى الماضي ، ما أن انتهى من إدارة الرقم حتى جاءه صوت الجرس من الطرف الآخر ، ثم انقطع الرنين كي يأتيه صوتها عبر الأسلاك صاحياً نشطاً كعادتها :

« آلو . . . » .

« صباح الخير ! » . .

« صباح الخير يا فندم . . مين ؟! » .

« نسيتي صوتي ؟! » .

مرت ثواني قبل أن تخترق أذنه صرختها وهي تحمل فرح الدنيا بأسرها :

« مين ؟! . . . نبيل ؟! » .

« إزايك يا سامية ! » .

« بتتكلم منين ؟! » .

« من البيت ! » .

اختنق صوتها لهفة وحباً .

« جيت إمتى ؟! » .

« إمبارح بالليل ! » .

« وقاعد عندك تعمل إيه ؟! . . . يالله تعال . . . تعال يا نبيل إنت وحشتني قوي ! » .

. . . . . .

. . . . . .

أحس نبيل وهو يعيد السماعة إلى مكانها أن قلبه يكاد يقفز من حلقه مغادراً صدره إلى حيث سامية فتساءل في دهشة إن كان لا يزال يحبها . . . أصابه الاضطراب حتى عافت نفسه كوب الشاي فنهض من فراشه كي يستعد للقائها . . . و . . . ولقد كان اللقاء غريباً ، كان بعيداً كل البعد عن أحلام سامية وعما تصوره هو . . . عندما وصلت سيارة الأجرة التي كان يستقلها إلى ناصية الشارع ، وجدها تقف هناك في انتظاره وهي تتقافز في وقفتها وكأنها

تتعجل الدقائق والثواني ، هبط من السيارة فانـدفعت نحوه وكـادت ترتمي بين ذراعيه لولا جهداً عظيماًبذلته كي تحفظ لنفسها تـوازنها فـراحا يتصـافحان في حرارة وكأن يدها قد التصقت بيده لا تبغي لها فراقاً . . . وعندما تذكرت سامية تلك اللحظات بعد شهور طويلة ، أدركت حقيقة هامـة . . . أدركت أن الفرح الشديد ، أو الحزن البالغ ، من الممكن أن يلهيا الإنسان عن حقائق لا يجب أن يغفلهـا أو يلتهي عنها . . . فمنـذ اللحظة الأولى ـ هكـذا قالت سـامية فهمي ـ أدركت بشكل غامض أن نبيلاً هذا الـذي تصافحه ليس هو نبيـل الذي عـرفته وأحبته وانتظرته وتعذبت من أجله كثيـراً . . . غير أنهـا في محاولـة للدفاع عن حبها ، أدركت في لحظة أخرى أن عامين كاملين قد انقضيا منذ أن التقت به آخر مرة . . . ولا بد أن التجربة والمحن والسفر والغربة قد عَلّمته الكثير ، وغيـرت من طباعه الكثير . . . ولقد كانت موقنة يقيناً كاملاً أن الجوهر الذي اكتشفته فيه ذات مرة وارتبطت بـه ، لا زال بالقـطع موجـوداً وقائمـاً . . . جرفهـا الحماس والأمل وهي تدلف إلى السيارة من جديد ، ولقد هتفت بالسائق طالبة منه التوجه إلى هـذا الكازينـو المتواضـع على شاطيء النيـل ، والذي شهـد الأيام الأولى لحبهما ، والذي تعودا اللقاء فيه كلما أرادا أن يلتقيا بعيداً عن الناس ، ما كادت تنطق باسم الكازينو حتى هتف نبيل :

« **كازينو الجوهرة إيه يا سامية . . إطلع يا اسطى على سميراميس !** » .

والتفتت نحوه سامية وراحت تحملق فيه ، ازداد إحساسها الغريب بأن نبيلاً هـذا الذي يجلس إلى جـوارها بعـد غيبة دامت عـامين ، ليس هو نبيـل الذي غادرها كي يبني مستقبله . . .

لكنها لم تكن تعلم ، أن هذا الذي لفت نظرها ، وآلمها ، لم يكن سوى بداية سوف تجر وراءها ما لم يخطر على بال !

* * *

تـمّ الجزء الثاني

يليـه الجزء الثالث

hazim_ jalal@yahoo.com